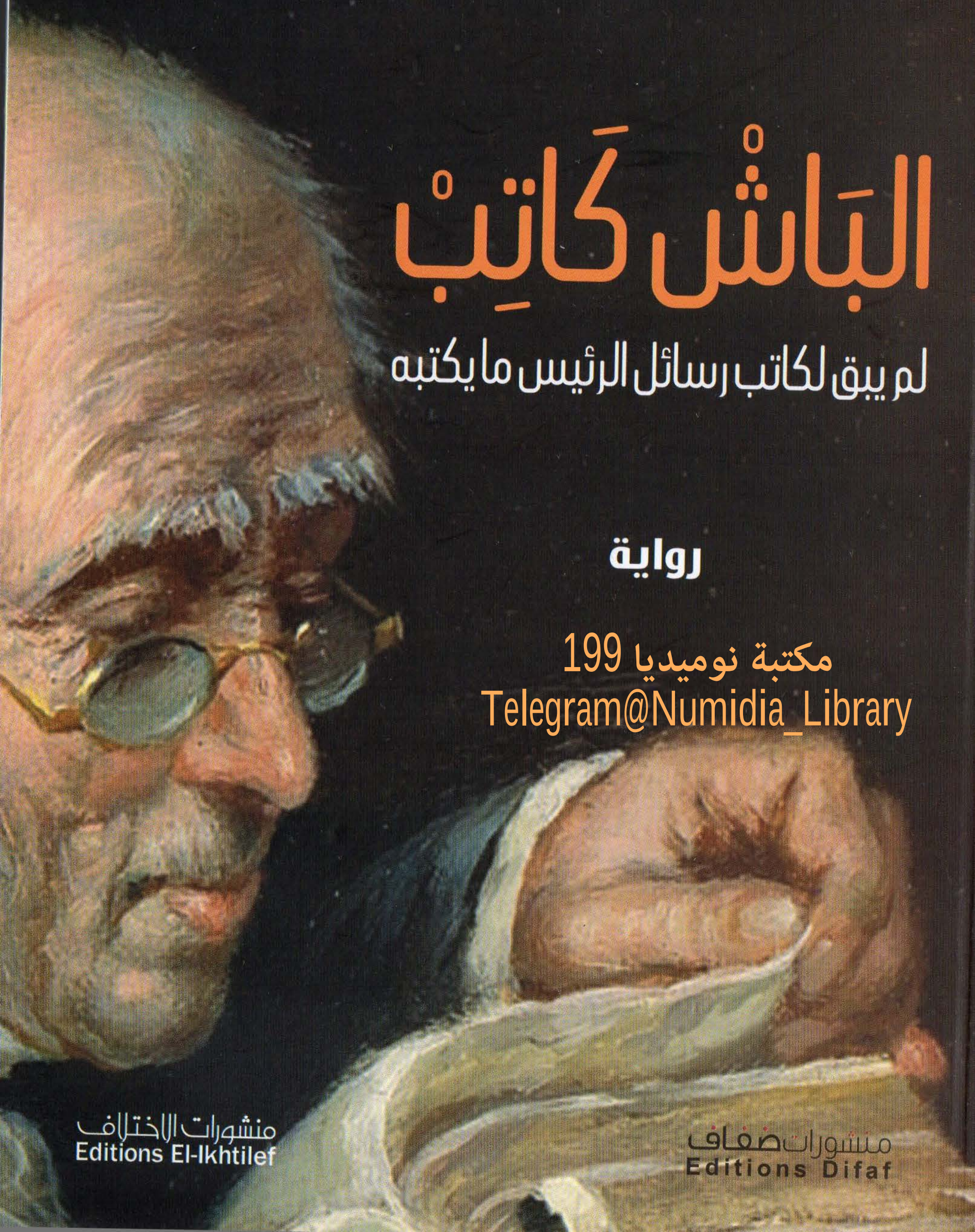
أمين الزاوي

البَاشْ كَاتِبْ

لم يبق لكاتب رسائل الرئيس ما يكتبه

رواية



منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

منشورات ضفاف
Editions Difaf

طبع في لبنان

البَاشْ كَاتِبْ

لم يبق لكاتب رسائل الرئيس ما يكتبه

رواية

أمين الزاوي

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

منشورات ضفاف
Editions Dif
editions.difaf@gmail.c

الطبعة الأولى

1441 هـ - 2019 م

ردمك 978-614-02-1780-5

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com

هاتف بيروت: +9613223227

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

9 شارع محمد دوزي برج الكيفان

الجزائر العاصمة

هاتف 0776616609

e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

يوم الجمعة خرجوا لريامْ

(أغنية جزائرية عريقة)

ماذا

ماذا أرى؟

لا فرق بين دموع الفرح ودموع الأحزان، إن طعميهما مالحان.

فقط دموع السلاطين طعمها حامض!

كان ______

كان مولاي قزمان أبو نسوان يحمل بين يديه الرقيقتين المرتجفتين الناعمتين فأسًا برأس ذات لسان عريض حاد، بريق شفرته يتلألأ تحت ضوء قناديل الزيت الباهت المثبتة في زوايا من جدار هذا السجن الرطب، الذي أُلْقيتُ فيه منذ ما يزيد عن شهرين أو أكثر. الضوء خافت، سبعة وستون يومًا وليلة بالتدقيق. كان ظل مولاي الذي ظله وليس بظله يقترب مني منعكسًا على بلاط الغرفة الزليجي البارد وهو يضحك ضحكًا هستيريًّا، لم يكن طويلاً بل على العكس كان قصره باديًا كثيرًا. لقد عرفته، ميزته في هذا الظلام أو نصف الظلام: إنه مولاي صاحب الرياسة والكياسة.

قال لي: "أشعارك الموزونة بميزان الفراهيدي والمنظومة في مدحي يا ابن عمّار لا تشفع لك، خيانة الملوك يا باشْ

كاتبْ لا يمحوها الشعر أبدًا، هي أكبر من خيانة الحبيبات. الشعر ليس بلسمًا، ومنافستك لابن زيدون وانتصارك عليه بعض مرات لا تجعل منك محصنًا من عقابي. وحبي لك، وتفضيلي لك، وشربنا من كأس واحدة النبيذ نفسه، ونومنا على وسادة واحدة محشوة بريش النعام الرأس بجانب الرأس، حتى ولو اشتركنا في الحلم نفسه، لا يغفر لك خديعتك لي. السلطة لا حبيب لها يا باشْ كاتبْ". ثم أطلق ضحكة طويلة ثانية دوى صداها في أركان الحبس، وتقدم مترنحًا في سكرته خطوتين أو أكثر في اتجاهي وأنا مقرفص في الركن أنتظر مصيري، لم أكن أميز هل نحن في الليل أم في النهار، لا يهم، حاولت أن أزحف إليه كي أقبّل قدميه طالبًا العفو منه، لكنه أمرني أن أمكث حيث أنا. تسمّرتُ، رفعتُ نظري إليه فوجدت قامته أقصر بكثير مما هي عليه عادة، لقد أتعبته الهزائم التي صورتها له في شكل انتصارات، ثم هوى على رأسي بالفأس فقسمها إلى قسمين.

ماذا أرى؟

صرخت مولاي قزمان أبو نسوان أنا عمّار النساخ الثاني ولست ابن عمار الأندلسي الخائن، أنا مستشارك وكاتب خطبك وبرقياتك الرسمية ورسائلك الخاصة الحميمة جدًّا. مولاي أنا لست أبا بكر بن عمار الأندلسي الطموح، أنا لست ابن عمّار

الخداع، أنا كاتب رسائلك وخطبك، قلبك وكبدك، أنا حبرك وقلمك، أنا روحك الثانية، صحيح أنا أشبهه قليلاً في الغيرة عليك حين يحيط بك الآخرون، أشبههفي قرض الشعر وحب الشعراء الشعبيين والموسيقيين، ومثله كنت وزيرًا ولو لمدة قصيرة، لكني لم أخنك يا مولاي قزمان أبو نسوان المبجل.

ماذا أرى؟

صرخت ثانية ولمست عنقي فوجدته يسيل عرقًا باردًا. دخلتْ عليّ سكرتيرتي صونيا محسوب صارخة وقد فقدت سيطرتها على أعصابها وأخذت ترش وجهي بالماء البارد، ثم وضعت مفتاحًا نحاسيًّا كبيرًا في راحة كفي، فهدأت، وعلى التو شعرتُ بيدها الرقيقة الصغيرة في يدي دافئة.

صونيا محسوب سكرتيرتي لا تحب من يكلمها وهي ترقن على جهاز الكمبيوتر، لأنها في الحال كهذه ترتكب أخطاء كثيرة وتصاب بصداع في الرأس وتشرب أسبيجيك 500 ميليغرام على رأس كل ست ساعات.

من يومها قررت ألا أقرأ شيئًا إضافيا عن تاريخ ملوك الأندلس، الأندلس ليست جنة كما يروى، لن أقرأ شيئا عن علاقة المعتمد بن عباد بكاتبه أبي بكر بن عمار؛ لأن ذلك قد يشوش عليّ حبي لمولاي قزمان أبو نسوان ويرفع من درجة خوفي منه وهو الرحيم. وأنا الذي أعبد مولاي وصاحب نعمتي.

الباشْ كاتبْ ابن عمار كان يحب مولاه حبًّا أعمى، حتى إن بعض المؤرخين كانوا يعتقدون أن علاقة ابن عمّار بالمعتمد كانت علاقة مِثلية، وأنهما كانا ينامان في سرير واحد.

أنا أيضًا أحب مولاي قزمان أبو نسوان حبًّا أعمى، وأتمنى أن أنام معه في سرير واحد وعلى مخدة واحدة محشوة بريش النعام، لكنني لا أشرب النبيذ.

حين غادرت صونيا محسوب مكتبي وقد اطمأنت عليّ بعد أن استعدت وعيي وعافيتي ورأسي، نظرت إلى الإطار الذي بداخله صورة مولاي قزمان أبو نسوان وهو في عمر الأربعين، أقل بقليل، الآن هو في الثمانين ربما تجاوزها بقليل، أطال الله في عمره كثيرًا وكثيرا الإطار مثبت فوق مكتبي، والذي أتولى بنفسي مسح الغبارَ عن زجاجه مرة كل ثلاثة أيام. قبّلتُ الصورةَ خلسة على الجبهة، قبّلتها بكل بصدق وحلولية، فهذا ولي نعمتي ومصدر وجاهتي في قريتي وبين أقاربي.

حين قبلته على الصورة شعرت بإحساس غريب وتذكرت ما كتبه المؤرخون عن العلاقة العشقية الجسدية بين المعتمد بن عباد والباشْ كاتبْ ابن عمار.

قلت وأنا أنظر إلى صورة مولاي قزمان أبو نسوان: يا رب، إذا ما قُدر وأن خنتك فلتكن خاتمتي مثل خاتمة أبي

بكر بن عمار كاتب المعتمد، نهاية دموية قطّع فيها المعتمد بن عباد جسد كاتبه بالفأس إربًا إربًا لخيانته. لا يمكن أن يقوم بمثل هذا القتل الهمجي الوحشي في شاعر ونديم إلا عاشق متيم، ببرودة أعصاب، وبدمع خفي، طلب المعتمد بن عباد من مساعديه أن يضعوا جسد الباشْ كاتبْ المُقَطّع في كفن من حرير أصلي جُلب من أرخبيل اليابان، ويُغَسَّل ويغَمّس في أجود العطور، ويدفن على الطريقة الإسلامية المالكية الحنفية ويوارى التراب بالقرب من غرفة نوم الخليفة حتى لا ينساه. وإذا كان يا رب هذا مصيري فلا أتمنى لولي نعمتي ومصدر جاهي ووجاهتي قزمان أبو نسوان أن يكون مصيره كمصير المعتمد بن عباد، الذي دارت رحى الأيام عليه فمن قصور أشبيلية حيث الحرير والدمقس والبساتين ودنان الخمر والنساء والغناء والموسيقى والشعر، من هذه الجنة إلى المنفى، ليتحول إلى عابر سبيل من طنجة إلى مكناسة ليستقر به قدره في سجن بقرية أمغات بالقرب من مراكش، على الجهة الأخرى من البحر.

أنا عمّار النساخ ولست ابن عمار الاندلسي؟

حاولت أن أبعد عن فكري هذا المصير، لكن الأصوات الغاضبة القادمة من الشوارع المحيطة بالقصر الرئاسي والتي تصل حتى مكتبي، وصور التظاهرات التي تبثها بعض

لقنوات التليفزيون المغرضة في كثير من المدن الداخلية تخيفني، تجعل بعض الأفكّار السوداء تسكنني، فأرى المعتمد بن عباد، في صورة "مُعْتَمِدي" أنا، في صورة مولاي قزمان أبو نسوان، أراه مكبلاً، يداه الناعمتان في الأغلال وهما اللتان لطالما حملتا كؤوس الويسكي العريق الغالي والسيجار الكوبي الفاخر، وأنامله التي كثيرًا ما مسحتا على أفخاذ النساء الجميلات الشقراوات والسمراوات والحنطيات في حفلات الاستقبال في سفارات البلدان الشرقية الاشتراكية والبلدان الغربية الرأسمالية، أرى أظافر يديه وسخة وقد هدها الإهمال. أحاول جاهدًا أن أطارد هذا الشريط القاسي من رأسي، لكنه يزداد أكثر فأكثر التصاقًا بتلافيف مخي وخيالي. أصرخ عاليا فتدخل ثانية سكرتيرتي صونيا محسوب قائلة: "هل أنادي يا أستاذ على طبيب المناوبة؟". أشير إليها بيدي أنْ لا. تغادر المكتب، وإذ بي أرى سيد نعمتي مولاي قزمان أبو نسوان يُقْتَاد إلى الجهة الأخرى من الحدود الغربية غلى بلاد سلطان الغرب، وهي ذات البلاد التي اقتيد إليها المعتمد بن عباد، ليوضع في مدينة اسمها "جودة" أو "وجدة" لا أذكر جيدًا، اختلط عليّ الاسم، وبالضبط يُقْفَلُ عليه في بيت بسيط يقال إنه كان حمّامًا شعبيًّا للنساء والرجال، وقد استُعمل أيضا ماخورا عسكريا غير شرعي، وقد حُوِّل بالمناسبة إلى سجن

مجهز خصيصًا لاستقباله، من بحمّام إلى سجن سلطان.
كنت بين الحزن والسعادة، حزينًا لأني أرى ولي نعمتي مهانًا في الأغلال، يعامَل كالسرّاق وقاطعي الطرق، وسعيدًا لأنني كنت أشعر وكأنه مرتاح البال إذ يعود إلى بيت كان حمّامًا شعبيًّا وماخورا عسكريا في الوقت نفسه.

أسمع نقرات مطر عنيف على الزجاج. وفي الجهة الأخرى أسمع صوت نقرات الشوكة على الصحن الخزفي يأتي من غرفة المكتب المجاور لمكتبي، فأدرك أن الساعة هي منتصف النهار وخمس دقائق بالضبط. إنه موعد تناول الغداء بالنسبة إلى جاري المستشار روبيسبيير كما يسميه العامة في ديوان القلم والإنشاء الذي أنا رئيسه، وروبيسبيير هذا وهو عميد المستشارين جميعهم.

ديوان القلم والإنشاء الذي أنا رئيسه بكل فخر وشرف في هذا القصر الرئاسي الموجود في الحي المولوي، المقيمون فيه من المستشارين وعددهم يفوق المئة والثلاثين يشبهون حرملك الخليفة العثماني، يعيشون في غيرة مشتعلة بينهم وفي منافسة حامية الوطيس في مَنْ يُطلَبُ لخدمة صاحب الرياسة والكياسة مولاي قزمان أبو نسوان، حتى إننا في هذا الديوان الذي أرأسه، في علاقتنا مع مولاي، نشبه الزوجات الضرائر.

أنا

أنا المهدي أخريف، إلاّ أن الجميع في الحي، بل في كثير من أحياء المدينة ينادينى باسم بوب مارلي. قدري يشبه قدر هذه القطة التي تعيش معي منذ أزيد من السنتين، كلانا سقط من السماء ليعيش في هذه المدينة المسماة "آلجي" أو إيكوزيوم، أي الجزائر العاصمة، من سمّاها بهذا الاسم؟ مصيرنا واحد وغريب، حكايتانا متشابهتان ومتقاطعتان.

هي ليلة ميلادي، هذه التي بين الخريف والشتاء.

هذه السنة يبدو أن الشتاء استعجل نزوله على المدينة. أقيم بهذه الشقة الكولونيالية المطلة على الميناء، في هذه الحارة المسماة "العجائب السبعة" بحي تليملي الذي كان الفرنسيون يطلقون عليه اسم "شرفات آلجي"، ما بين القصر الرئاسي وقصر الحكومة. المنظر مدهش ليلاً ونهارًا أيضًا.

ليلاً تبدو المدينة غارقة في مهرجان من الأضواء، ونهارًا غارقة في الحدائق التي أقامها الفرنسيون بين حي وآخر، خضرة الأشجار وزرقة البحر، لقد هندس الفرنسيون هذه المدينة بحيث تبدو وكأنها مجسمة فنية، وكأنهم لم يفكروا أبدًا في أنهم راحلون عنها ذات يوم ليتركوا هذا الجمال العمراني لغيرهم.

هذا الجامع الأعظم أفسد جزءًا من منظر المدينة. لقد بني بشكل نافر وبعقلية بدوية شاذة، أقاموه على بضعة أمتار من شاطئ الصابلات الذي يعد من أجمل شواطئ المتوسط، وهو المكان الذي كان يجيئه راجلاً ألبير كامو للخلوة والسباحة والقراءة وتأمل جمال المدينة بحرًا وسماء وهندسة، حيث كان يقيم في حي بلكور الشعبي على بعد مئات الأمتار.

وحيدًا أحتفي بنفسي في يوم ميلادي. رائع أن تحتفل بنفسك! المطر نازل في سيمفونية عذبة وأمامي على الطاولة قنينة نبيذ جزائري ممتاز، أُطْلق عليه اسمُ القديسة سانت مونيكا، وهي أم القديس أوغسطين وقيل إنها كانت عشيقته أيضًا، فالعلاقة بينهما ظلت غامضة وسكتت عنها الكنيسة. في البعد تتلألأ أضواء الجامع الأكبر الذي لم يكتمل بعد بناؤها بشكل نهائي، وتتجلى صورة المدينة الكولونيالية التي

تشبه في تناسقها بطاقة بريدية، وأنا أحتفي بنفسي سمعتُ مواء قط على سطح الشّقة يقطع صوت المطر بين الحين والآخر، إنه يقف على سطح العمارة على مستوى سقف المطبخ مباشرة، وقفت أصغي إلى موائه الحاد والحزين، نسيت صوت المطر، أو ربما توقف المطر عن السقوط نهائيًّا فلم أنتبه لذلك، اعتقدت أن القط قد يكون سقط في شق أو حفرة فلم يتمكن من الخروج منها أو هو مريض يعاني ألمًا ما. الساعة قد قاربت منتصف الليل بقليل، ترددت، ثم تحت تأثير سيمفونية المواء الحزين المتواصل، هاتفت جاري عبد الرحمن الغسّال، وهو جار غريب الأطوار يمارس عشرات المهن، يعرف كل شيء، يده تصلح لكل شيء، فهو نجار ولحّام وسمكري وميكانيكي وطباخ ودهّان وكهربائي وسائق تاكسي غير نظامي، وممرض وفقيه وغسّال أموات وعضو في المجلس البلدي، وهو إنسان خدوم تحت التصرف، متى طُلِب منه القيام بأي خدمة، وهو يملك نسخة من مفتاح شقتي يدخلها متى شاء ومتى غبت، هاتفته وطلبت منه مشكورًا أن يصعد إلى سطح العمارة لتقديم مساعدة لهذا الحيوان الضائع المتألم. لم يتأخر الجار الذي كل شيء فيه طبيعي وعفوي وشعري، بعد نصف ساعة تقريبًا هاتفني من السطح قائلاً: "لقد اختفى القط في الظلام". قلت له شكرًا ثانية واعتذرت له

على الإزعاج في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل، وعدت إلى الطاولة انتبهت أنني سعيد وأنا أحتفل وحيدًا بعيدي ميلادي. هذه المرة أَهْدَيْتُنِي هديتين اشتريتهما بنفسي لنفسي، قنينة شمبانيا ووردة حمراء من عند بائع الزهور الدا المولود صديقي، الواقع أنني لم أخبر هذا الأخير بأنها هديتي لنفسي بعيد ميلادي لأنه لو علم بذلك لكان أهداني باقة كاملة. قبل منتصف الليل بدقائق أخرجت الهدية من غلافها الورقي الجميل، سعدت بالهدية كثيرًا، انتابني إحساس غريب وأنا أفرح بهدية أهديتها لنفسي بنفسي! لم أشعر يوما بالسعادة مثل هذه اللحظة وبهذه الهدية! وضعت الوردة في بوقال من زجاج وأضفت ماء قليلاً وملعقة من دقيق السكر، قبل أن أفتح زجاجة الشمبانيا التي أهديتها لنفسي، وضعت شريطاً للشيخة الريميتي، أحب هذا المغنية لأنها تذكرني بأعراس قريتي. نظرت إلى الساعة الجدارية المؤقتة بعشر دقائق مسبقة، هي العشر دقائق التي أستدرك فيها مواعيدي التي أصلها متأخرًا دائمًا، قررت أن أفتح قنينة الشمبانيا وأحتفي بصوت انطلاق الغلاقة الفلينية المصوبة نحو السقف مع فقاعات السائل الذهبي الصاعدة في كل الاتجاهات، وإذا بالقط يعود إلى موائه الحزين جهة المطبخ دائمًا. وضعت القنينة بمحاذاة الوردة الواقفة بفخر في البوقال الزجاجي الموضوع على طاولة

جهاز التليفزيون المُطفأ، واتجهت نحو المطبخ حيث مصدر الصوت يأتي من السّطح. فكرت أن أهاتف جاري عبد الرحمن الغسّال لكني تراجعت، قلت في نفسي سأدعوه ليشاركني قنينة الشمبانيا، وفي الوقت نفسه أطلب منه مرة ثانية المرور على السطح لحل مشكلة هذا القط الغريب، فأنا لا أستطيع أن أشرب كأس شمبانيا وأستمتع بصوت الشيخة الريميتي والقط يموء مواء حزينًا قاتلاً فوق رأسي، ولكني ترددت، وضعت كرسيًّا طويل الأقدام وسط المطبخ، وبدأت أتابع صوت وحركات القط الذي على السطح. ذكرني صوته بأصوات غريبة قادمة من نهر المالحة الذي كان يمر بأطراف قريتنا، كنت أسمعها حين كنت طفلاً ولم أميز هل كانت أصوات حيوانات أم بشر أم شجر؛ لأن أمي كانت تصر بأن الأشجار في بلدتنا تتكلم في الشتاء وفي الربيع ما بين ساعة الغروب وقبل الفجر بقليل، وكان أبي يعارضها في ذلك بحجة أنه لم يسمعها يومًا تتحدث، وهو الذي له أذنان تسمعان صوت الندى ويعرف العربية والفرنسية والأمازيغية، بل بعض الكلمات الإسبانية ويقرأ كتبًا كثيرة.

مواء القط يطرد صورة أمي وأبي وقريتي ونهرها الذي تصعد منه أصوات غريبة عند العصر، لست متأكدًا من وجود نهر بهذا الاسم في قريتي؟!

أنتبه الآن إلى أن المطبخ كله فوضى، عشرات الصحون والكؤوس الوسخة مكدسة بعضها فوق بعض، تَكاسَلْتُ في وضعها داخل الغسالة الأوتوماتيكية، هو كسل يسيطر عليّ خاصة في فصل الخريف. مع ذلك أعجبني كثيرًا منظر الصحون عليها بقايا الطعام والكؤوس التي فيها بقية نبيذ أو بيرة والفناجين التي فيها تفل القهوة. فكرت أن أفتح قنينة الشمبانيا بالمطبخ، أن أصوب غلاقة الفلين في تجاه سقفها الذي من فوقه يقف القط الذي لم يتوقف عن المواء.

ـــــــــــ الاسم

الاسم الإداري للباشْ كاتِبْ الحاكم قزمان أبو نسوان ليس "المدلل"، مع أن الجميع في ديوان الإنشاء الجمهوري ينادونه كذلك ولو خفية، اسمه الإداري الرسمي هو عمار النساخ الولهاصي. منذ صغره عشق القواميس وأحب تعلم اللغات، خاصة العربية والفرنسية والإسبانية. حاول مع الموسيقى لكنه لم ينجح. منذ سن المراهقة يعتني كثيرًا بمظهر شعر حاجبيه الأسود الكثيف، ينتفهما، يرتبهما مرة كل ثلاثة أسابيع عند حجّام الحي، وهو صديق له تعارفا منذ مقاعد المدرسة الابتدائية في مدرسة بتلك المدينة الغامضة مدينة جنان طيطمة، التي تحمل في اسمها وفي عادات ولباس نسائها ورجالها وفي إيقاع موسيقاها بعضًا من بقايا جلسات بساتين أندلسية، مدينة وكأن الجميع فيها نزل البارحة من قرطبة أو

من غرناطة مشيًا حافي القدمين، باكيًا على شيء ضاع منه في الرمل أو في موج البحر، وفي الحقيقة لا شيء من ذلك، فلقرية بستان طيطمة حكاية أخرى.

من شدة حرصه على مظهره ونتف شعر حاجبيه، ظل كثيرون يعتقدون أن عمّار النساخ من المجتمع المِثْلي، بما فيهم جدته التي كانت خبيرة في تجارة الفستق الحلبي والزنجبيل والحرير الأصلي، والتي كانت كثيرة الأسفار وكثيرة المال، إلى أن ابتليت بولد عاق هو أب المدلل الذي بدد مالها في المواخير وعلى النساء والليالي الملاح والأسفار، حتى أنها حَجَرتْ عليه، إلى أن جاء اليوم الذي قرر فيه المدلل الزواج، تزوج من أخت الحجام الذي قيل إنه كان على علاقة جنسية بها حتى قبل الزواج الشرعي. منحته زوجته طفلين: الأول سماه باسم جده دفين فاس "إدريس"، وسمى الثاني باسم غريب عثر عليه في قواميسه ذات الكلمات المهجورة "سوهالو"، قبل أن يطلقها فتعود إلى بيت أخيها الحجام بطفلين على ظهرها، ويعود هو لقضاء وقته ليلاً ونهارًا بين القواميس والبحث عن معاني الكلمات الميتة التي سقطت نهائيًّا من الكتب المعاصرة والحديثة. وقد أثرت حياته بين الأوراق على صحته، فأصبح هشًّا وأصيب بمرض جلدي غريب وهو لم يبلغ بعد العشرين، عانى منه كثيرا، حتى

أصبح العامة يتحاشون السلام عليه خوفًا من العدوى، لكنه ما فتئ أن اندثر واختفت ألّبثور التي ظهرت بشكل مرعب على ذراعيه ووجهه وعنقه وساقيه، وشيئًا فشيئًا استعاد جلدُه لونه الأبيض بملمس رطب غريب، وقد فَقَدَ كل شعر على أطراف جسده باستثناء شعر رأسه وحاجبيه وجفنيه.

كان عمار النساخ الأول أي الجد، هو أول من بنى بيتًا بهذا المكان الخالي الذي تحول في ظرف قياسي إلى دشرة صغيرة، سيصبح لها شأن كبير بين عشرات الدشور المنتشرة على حدود بلد سلطان الغرب. لقد ظلت ملتقى المارة من المسافرين الذين يعبرون الحدود على دوابهم للتجارة والتهريب في الاتجاهين، قرية يتوقف فيها الجميع لوجود بئر بماء مباركة، ماؤها زلال لا مثيل له في الأنحاء، تفد عليه قوافل النساء من دشور قريبة وأخرى بعيدة للسقي ولتبادل الأخبار ولعقد صفقات الزواج. ثم ما فتئ أن ظهر، وفي غفلة من الجميع، بستان نبتت أشجاره بشكل فوضوي وعفوي حول البئر جراء الماء المراق على أطرافه باستمرار، بستان مشكل من مختلف أنواع الأشجار المثمرة، الرمان والتين واللوز والعنب والخوخ والسفرجل والتفاح والمشمش والكرز والزيتون والبرقوق.. ومع مرور الزمن تحول البستان إلى فضاء شبه سري يختلي فيه الموسيقيون والمغنون والمغنيات. وذات يوم

قررت مغنية اسمها طيطمة المسيردية بناء أول منزل على أطراف الجنان، وبسرعة تكاثرت البناءات جنبًا إلى جنب وتوسعت في هندسة رائعة، وامتدت الأزقة الضيقة تظللها أغصان الأشجار المثمرة خاصة الدالية، حتى تداخلت وبنايات الدشرة الأساسية، حيث كان قد عمَّر الجد عمار النساخ الأول منزله العالي، وكان منزله أول منزل يبنى بطابقين في القرية. ومع مرور السنين تشكلت شبه قرية كبيرة ما فتئت تكبر وتكبر حتى أصبحت بحجم مدينة، وكانت غالبية ساكنتها المؤسسة من فصيلة الفنانين، وذاع صيتها وأصبحت ملجأ يهرب إليه الشعراء الإباحيون من كل الجهات، وكذا المغنيات اللواتي تتم محاصرتهن ومنعهن من أداء عملهن بكل حرية في المدن والقرى المحافظة وما أكثرها. وهكذا تأسست مدينة سماها الفرنسيون لاحقًا "جنان طيطمة"، بُنِيتْ المدينة عند سفح جبل اسمه أربوز، ويقال له أيضًا أعربوز، وذكره ابن خلدون في مقدمته باسم آخر غريب هو سابوز، أو ربما أخطأ الوراقون في النقل عنه، وهذا وارد.

في مدينة جنان طيطمة هذه ولد عمّار النساخ الثاني. ومع مرور الأعوام وتكاثر الساكنة والبنيان أصبحت المدينة صانعة الموسيقيين والشعراء والمغنيين والرؤساء والوزراء

والسفراء، عرفت بذلك في الزمن الاستعماري كما في زمن الاستقلال لاحقًا.

منذ الصغر كان عمار النساخ ضعيف البصر، لذلك لم ينتبه يومًا لوجود جبل أربوز أو أعربوز على أطراف مدينته، جنان طيطمة. إنه الطفل الأول الذي لبس نظارة في القرية، وكان في البداية يخشى أن يخرج للساحة للعب مع أترابه؛ لأنهم استهزؤوا به بمجرد أن رأوه بنظارة، مع ذلك أصر على لبسها ولم يكن له خيار آخر، فشبع استهزاء انتهى بقبول الجميع به وبنظارته وبطريقة تسريحة شعره النسائية، حيث الفرقة في المنتصف.

لا يزال عمار النساخ الثاني يستعيد تفاصيلَ ذلك اليوم الذي ذهب فيه صحبة جده عند طبيب العيون في مدينة أخرى. كان عليهما أن يركبا حافلة لتسير بهما نحو ساعتين للوصول إليها، ولأول مرة اشتم رائحة المازوت وأحبها. فحص الطبيب قوة بصره بالاستعانة بسبورة سوداء مكتوب عليها بعض الحروف بأحجام مختلفة، وبعض الأرقام أيضًا، بعضها مكتوب بالمقلوب وبعضها على الجانب.

"كنت في السنة الثالثة ابتدائي، كان طبيب العيون يسألني وأنا أجيب، فيغير بعض الزجاج على إطار نظارة كبيرة شعرت به ثقيلاً على أرنبة أنفي، وكان جدي مبتهجًا

وفخورًا كلما أجبت والطبيب يرد بابتسامة تارة وبكلمة "برافو" تارة أخرى. لم أفهم معنى كلمة "برافو" لكني شعرت بأنها تعني شيئا إيجابيا، واقتنى لي جدي نظارة من محل غير بعيد عن عيادة الطبيب، أذكر أنني وضعتها في جيبي ولم ألبسها حتى وصلت البيت، وحين لبستها أول مرة وخرجت إلى الساحة نظرت إلى السماء فوجدت الجبل يظلل المدينة، فسألت عن اسمه فأخبرني جدي عن الأسماء الثلاثة، لكني فضلت التسمية التي أطلقها عليه ابن خلدون سابوز. كنت أعتقد أن ابن خلدون هو أحد جيراننا الذي يكون قد مات من سنوات ولم أنتبه لغيابه، أو ربما كنت نائمًا فمات في الليل. ومباشرة وبمجرد رؤية سابوز تمنيت أن أتسلقه حتى أدرك قمته، لكن والدتي منعتني من ذلك، فتنازلت عن الحلم وقررت ألا أنظر ثانية إلى الجبل؛ لأنني كلما نظرت إليه شعرت بإغراء الصعود إلى قمته، وهذا ما يغضب أمي وأنا لا أريد أن أثير غضبها، فهي حساسة وكثيرة البكاء، هكذا خلقت لا أعصي لأمي أمرًا.

وحين لبست نظارتي شعرت بغياب أبي، ولم أفصح بذلك لأمي لأنها كانت ستغضب مني، ولا لجدتي التي ما عادت تستطيع مغادرة سريرها، ولكنها حافظت على ذاكرتها قوية وصاحية، فكانت تحاسب جدي على مصاريفه بالسنت والمليم.

لكن بعد سنوات كثيرة، أربعة عقود تقل قليلاً أو تزيد قليلاً، ها أنا ذا قد تسلقتُّ أكبر جبل في البلاد ووصلت إلى أعلى قمة فيه. ووصلت إلى قمة جبل الرئاسة.. إلى قمة تلة حي المولوي، وأصبحت بـاشْ كاتبْ محرر خطب الرئيس الرسمية ورسائله الخاصة، ورئيسا لديوان القلم والإنشاء.

القط ______

القط يموء على السطح، يجرحني صوته.

عدت إلى الصالون رفعت قليلاً من صوت الشيخة الريميتي على جهاز المسجل، بدا لي منظر الجامع الأكبر كندبة مشوهة لوجه المدينة الجميل.

البارحة طلبت ثلاثة أيام عطلة من رئيسة المصلحة الآنسة نبيلة قومي، قلت لها إنني مضطر إلى زيارة والدي الذي يرقد على فراش الموت، مع العلم أنني دفنت والدي منذ تسع سنوات أو أكثر. السنوات تمضي بسرعة ونحن قابعون لا نتحرك، نحب الكذب والشاورما والعلكة نعناعية الطُّعْم، لم أدفنه لأنني لم أحضر جنازته، فأنا لا أدخل المقابر أبدًا، لن أدخلها إلا محمولاً على الأكتاف نحو قبري. كنت أدرك جيدًا أن رئيسة المصلحة تعرف جيدًا أن والدي قد لقي ربه منذ

سنوات، ولكنها وافقت على طلب العطلة وعلى وجهها ملامح ابتسامة العارفة بكذبي. الآنسة نبيلة قومي فتاة تجاوزت الأربعين، غير متزوجة، هي جميلة وأنيقة لكن رائحة فمها كريهة وضحكتها لا تناسب ملامح وجهها الملائكي وهو ما جعل كل من يقترب منها إلا وينفر منها بعد لقائين. منذ أن التحقت بهذه المصلحة الجديدة في شركة سونيلغاز التي نُقلت إليها بعد أن قضيت عشرين سنة في مصلحة أخرى كجابي، يتمثل عملي في الإشراف على الأرشيف الإداري والمالي، وأيضًا فهرسة الكتب باللغة الفرنسية التي تصل الشركة، التي تملك مكتبة متخصصة غنية تعود إلى العهد الاستعماري، مكتبة شركة الكهرباء والغاز تملك رصيدًا أهم من رصيد كثير من المكتبات الجامعية، أنا لا أتقن العربية بما يسمح لي بتصنيف الكتب بهذه اللغة التي هي نادرة في مكتبتنا. لم أشعر يومًا بملل في عملي هذا الذي دخلته منذ عشر سنوات تقريبًا. لقد عقدت علاقة خاصة وحميمة مع الكتب التقنية التي تتحدث عن تاريخ الكهرباء وتاريخ علماء الكهرباء، وأيضًا عن مغامرات اكتشاف البترول والغاز وعن الطاقة المتجددة، أدرك جيدها من عطر أوراقها، الكتب الجيدة تعبق رائحة عطرة كالنساء الجميلات تمامًا. يحدث أن أنسى نفسي في المكتب بين الكتب حتى يدق علي الحارس الليلي الباب،

فأنتبه بأن الجميع قد غادر منذ ساعات، لا نتبادل أي حديث اللهم التحية بحركة الرأس، أمنحه سيجارة، يسير معي خطوات في الرواق ذي السقف الحاني الذي يشعرك كأنك في رواق المحكوم عليهم بالإعدام، يوصلني حتى محطة الحافلة قبالة المركز ثم يعود، لا نتحدث أبدًا، نسير في صمت، هو يدخن السيجارة التي منحتها إياه بلذة، وأنا أفكر في متعة بعض الكتب التي قرأتها وصنفتها.

حين أصل المحطة ينظر إليّ وأنظر إليه، نتوادع بحركة الرأس، ثم يعود أدراجه وأركب الحافلة التي توصلني إلى خمارة مَاسْ أرزقي، أحتسي ثلاث قنينات بيرة، ثم أرجع راجلاً إلى بيتي أمر على بقال الحي الثرثار والطيب في الوقت نفسه، أشتري ما أتذكر أنني بحاجة إليه وأغراض أخرى لا أحتاجها مطلقًا: في كل يوم تقريبًا أشتري ثلاث بيضات، علبة جبن لافاش كيري (البقرة الضاحكة) ومربى المشمش. وبعد مرور شهر أجد البراد قد امتلأ تقريبًا بالبيض والجبن ومربى المشمش. أضحك، أهاتف عبد الرحمن الغسّال، يحضر كعادته بعد عشر دقائق على أقل تقدير وكأنما كان ينتظر مكالمتي خلف الباب، أحتفظ بعلبة مشمش واحدة وأعطيه البقية مع البيض وعلب الجبن، وأعلق: لقد أحضر لي أحد الأصدقاء هذه المربى، والبيض قد يفسد، خذه. يأخذه وهو مدرك أنْ لا أحد أهداني ذلك.

هو الآخر لا يكلمني، يتناول مني الكيس البلاستيكي وما فيه ثم ينصرف بهدوء. عبد الرحمن الغسال جاري المفضل منذ أن سكنت هذه الشقة التي منحتني إياها البلدية في إطار حملة سبقت موعدًا انتخابيًّا لا أذكر مناسبته، انتخاباتنا تشبه أعراس القرى، أنا لم أنتخب في حياتي إلا مرة واحدة، والمرة الوحيدة التي انتخبت فيها كانت بالوكالة، حيث وقعت شهادة توكيل لأحد المرشحين لينتخب مكاني على قائمته، على نفسه! وحتى الآن أشعر بالندم من ذلك التوكيل وكأن شرفي قد أهدر، كلما فكرتُ في توقيعي على تلك الوكالة ينتابني حزن وأشرب نبيذًا بكمية كبيرة.

القط يموء وأنا أستمع إلى الشيخة الريميتي، وفي رأسي أدندن إيقاع موسيقي لأغنية لبوب مارلي محاولاً تذكر كلماتها.

بدأ القط يدرك أن شخصًا ما في المطبخ الذي يقف على سطحه، تغيرت رنة صوت موائه، أصبح أكثر حنانًا. لست أدري لماذا صوت القط أشعرني بجوع شره، فتحت البراد وأخرجت شريحة لحم، نظرت إلى الساعة لم يبق سوى بضع دقائق قليلة عن منتصف الليل، موعد إطلاق فلينة الشمبانيا.

عدتَ يا يوم مولدي عدتَ يا أيها الشقي!

أشعلت نار غاز المطبخ، أخرجت شريحة لحم من البراد، ألقيت بها في المقلاة، شخشخت في الزيت فازداد صوت القط حدة، في صوته الشجي أُنْسٌ ما، خفت أن يذهب ويتركني وحدي في المطبخ، أشعر أن وجوده ضروري حتى وهو على السطح.

القط ضائع مثلي!

منذ أن قرأت كتابًا للكاتبة الفرنكو–لبنانية فينوس خوري–غاتا عثرت عليه في مكتبة الدا المولود الشخصية، تتحدث فيه عن قطتها فينوس بطلة شريط دعائي لنوع من الكروكيت الفاخر، قامت بإنتاجه وتصويره القناة الفرنسية الأولى أو الثانية لا أذكر، تستعيد الكاتبة وبتفصيل شعري الأرمادة التقنية التي حطت بشقتها لإنجاز الشريط الدعائي الذي لا تتجاوز مدته أربعين ثانية، والذي دام تصويره خمسة أيام، من يومها بدأت أعتقد في أن أصل المرأة قطة، وأن كل قطة هي امرأة في حالة مسخ جميل، وأن الفراعنة لم يخلدوا القطط في قبورهم إلا لأنهم كانوا يؤمنون بشيء سري يعيش داخل هذا الحيوان الرقيق الغريب. فأجمل ما في القطة عيونها ودلعها وغضبها، فحتى هذه الكاتبة وعلى الرغم من عمرها المتقدم كما يظهر ذلك من صورة الغلاف الرابع، إلا أنها تشبه قطتها تمامًا في نظرتها ولباسها وتسريحة شعرها وغنجها الساكن في

عينيها اللابستين عدستين بلون أزرق فاتح، مَنْ يشبه مَنْ؟ مِنْ مُسِخثْ في مَنْ؟

بدأت أشعر برغبة في الحديث إلى القط. شرعتُ في تقليد طريقة إيقاع موائه، يموء هو على السطح فأرد عليه بالمواء في المطبخ، أخذنا نَتَمَاوأ!! سكتَ صوت المغنية الشيخة الريميتي وكأنها هي الأخرى أخذت تراقب لعبتنا الطفولية ونسيت الغناء! لعبة بين جابي شركة سونيلغاز سابقًا يراقب شريحة اللحم في المقلاة وقط ضائع على السطوح. تخيلتُ القط يضحك مني ساخرًا، يقهقه، شعرتُ بذلك لأن نبرات صوته قد تغيرت تمامًا. منتصف الليل إلا دقائق، قلت بيني وبين نفسي لماذا لا أفتح غطاء فوهة تهوئة المطبخ الذي يصل حتى السطح وأدعو القط إلى النزول؟ أحضرت السلم، فتحت الفوهة ورفعت الغطاء الحديدي، وبدا ضوء خفيف يأتي من السطح. ناديت على القط، اقترب من حافة ممر الهواء من فوق، فرأيت عينيه تلمعان في الضوء الصاعد من المطبخ، انتبه جيدًا إلى وجودي، بدأ يدور حول الفوهة من جهة السطح، ثم ما هي إلا لحظات حتى سلم نفسه للهاوية لرائحة شريحة اللحم في المقلاة أو لموائي، سقط بالمطبخ، نظر إليّ قليلاً ثم تركني وطاف في الصالون وغرفة النوم، دار دورة تفقدية في الشقة ثم عاد إلى المطبخ بكل ثقة.

أطفأت النار من تحت المقلاة التي عليها شريحة لحم بقري، وقف القط بين ساقيّ يتمسح بهما، قط-نمري، الساعة منتصف الليل تمامًا، تناولت قنينة الشمبانيا، ضغطت بهدوء وحذر على المغلاق الفليني حتى انطلق بقوة نحو سقف المطبخ، وصعد في ممر الهواء ليسقط على السطح من حيث نزل القط، وتصاعد شلال فقاعات الشمبانيا فنزل بعضه على فرو القط، وضحكنا معًا، واقتسمنا شريحة اللحم.

تمددت

تمددتُ فوق السرير، مثلي فعل القط، بثقة تسلق السرير ونام بكل اطمئنان عند قدمي، فشعرت بدفء الصداقة تنبعث من جسده الممدد الغارق في نوم عميق. ولأول مرة حين صحوت في الصباح لم أشعر بضغط تلك الكوابيس التي ظلت تلاحقني كل ليلة منذ أن بدأت مسيرات الجمعة، وجدتُ الضيف نائمًا بكل ثقة وهدوء، أنتبه الآن بإنها قطة أنثى، فسميتها مباشرة سانت مونيكا على اسم النبيذ ذي الجودة العالية الذي شربته البارحة عند هبوطها من السطح. وسانت مونيكا هي واحدة من جداتنا الأمازيغيات من بنات مدينة سوق أهراس بالشرق الجزائري.

كعادتي قمت ببعض الحركات الرياضية، كانت القطة تنظر إليّ بكثير من الاستغراب وشرعت هي الأخرى في

القيام بحركات غريبة بين قدمي، مما جعلني أتساءل: أليست هي امرأة مسخت في شكل قطة قبل نزولها من السطح استحياءً؟

وبدأتُ حياة جديدة.

نظرتُ إلى سانت مونيكا فأدركت أنها تريد أن أحدثها ولو قليلاً عن عبد الرحمن الغسّال الذي حاول أن يمسك بها على السطح في الليلة الماضية، ربما لتطمئن أكثر. كنت متيقنًا أنها شعرت بالذعر لأنها تعلم أن عبد الرحمن الغسّال بلحيته الطويلة المخيفة يشتغل في البلدية وهو المنتخب المسؤول عن تلك المصلحة اللعينة المكلفة بملاحقة وجمع القطط المشردة في شوارع المدينة وساحاتها العمومية مرة كل ستة أشهر، لقتلها وحرق جثثها في فرن أقيم خصيصًا لذاك على أطراف آلجي إيكوزيوم في الجهة الجنوبية.

إلا أن مجموعة من مناضلي جمعية الدفاع عن حقوق الحيوان والمُشَكَّلَة في غالبيتها من النساء، خرجت في تظاهرة مطالبة بإلغاء هذا الإجراء المتوحش ضد هذه الكائنات الحيوانية الأليفة التي لا تؤذي أحدًا، بل إنها تبعث الطمأنينة في المدينة، وبعد حملة إعلامية محلية ساهمت فيها بعض الجرائد الفرانكفونية خاصة، وبدعم من بعض الجمعيات العالمية المدافعة عن حقوق الحيوان وحقوق الإنسان،

استجاب رئيس البلدية للطلب فحل هذه المصلحة وتم تحويل جميع الموظفين بها إلى مصلحة الدفن والجنائز، وهي أهم مصلحة في البلدية، حيث إذا أردت أن يدفن قريب لك بمكان جميل عليك أن تدفع رشوة، فهناك بعض الأماكن في بعض المقابر لا يحفر فيها قبر إلا برشوة متميزة.

كان عبد الرحمن الغسّال سعيدًا بعمله الجديد المتمثّل في تغسيل الأموات وتكفينهم، وهو ما يدر عليه مالاً معتبرًا، وهدايا تتمثل أغلبها في نسخ المصحف وسجاجيد الصلاة وعراجين التمر وقطع الصابون وزجاجات العطور الرخيصة.

الآن أشعر أن الشقة عامرة بالحياة، فالقطة سانت مونيكا تتنقل من غرفة إلى أخرى وكأنها ولدت هنا، كأنما تعيش في هذا الفضاء منذ زمن وهي التي سقطت البارحة من السماء!

جمعة أخرى، مسيرة أخرى.

______ اليوم

اليوم جمعة، عليّ أن أستعد للنزول إلى التظاهرات وسط آلجي العاصمة، هي الجمعة الثالثة من التظاهرات العارمة التي تخرج في كل المدن الجزائرية، هي جمعة المرأة بامتياز، إنه الثامن من مارس، يوم الحراك وعيد المرأة العالمي. سأمر على محل الدا المولود بائع الورد، أقتني باقة ورد منه وننزل معا إلى ساحة أودان، أهديها وردة وردة للنساء المتظاهرات. حملت شعاري الذي أرفعه كل جمعة مكتوب بثلاث لغات العربية والأمازيغية والفرنسية على كرتون كبير:

"دولة مدنية، لا عسكرية ولا دينية".

الدا المولود بائع الورد رجل ستيني من زمن آخر، قارئ نهم للشعر يحفظ آلاف الأبيات لرامبو وبودلير وجاك بريفير وروني شار وماياكوفسكي وبول إليوار، ويكتب الشعر أيضًا،

ولا يتخطى زبون أو زبونة باب محله إلا وسمع منه قصيدة أو مقطعًا من قصيدة. يحب الحياة ويلبس بطريقة مثيرة يشبه فناني القرن الثامن عشر. جميع أبناء الحي يحبونه ويحترمون اختياراته في حياته الشخصية، عاش العشرية الدموية ولم يفكر يومًا في مغادرة المدينة التي أحبها، على الرغم من أنه تعرض لعشرات التهديدات عن طريق الرسائل التي كان يعثر عليها تحت باب المحل كلما فتحه صباحًا، أو من خلال عدد من المكالمات الهاتفية التي كانت تصله عند آخر الليل أو توقظه عند مطلع الفجر، لم يخن الورد يومًا، لم يخن الجمال والأمل، لم يغلق محله طوال عشر سنوات من الإرهاب. لقد فَقَدَ الكثير من زبائنه وزبوناته، يفتح الجريدة كل صباح ويده على قلبه متسائلاً: اليوم الدور على من؟ قد تمر الأيام والشهور ولا زبون واحد يتجرأ على الدخول إلى محله لشراء وردة أو باقة. الناس تموت بالجملة وهو يبيع الأمل في الحياة، خفية كان الدا المولود كلما علم عن طريق الإذاعة أو الصحف بخبر اغتيال شخص يعرفه أو شخصية عمومية محترمة، خفية يذهب إلى المقبرة التي وري فيها جسده الثرى فيضع على قبره باقة ورد. كان يدرك جيدًا حجم الخطر الذي يهدده جراء هذا التصرف، مع ذلك كان يمر على جميع مقابر آلجي، مقبرة زدك ومقبرة سيدي يحيى ومقبرة غاريدي

ومقبرة القبة ومقبرة القطّار... يمر على القبور الجديدة يضع عليها وردًا ثم ينسحب.

إنني أحب الدا المولود، ملاك في جسد آدمي. هو من أهداني أول قيثارة، اشتراها لي في واحدة من أسفاره إلى إيطاليا، التي يسافر إليها مرتين في السنة لزيارة صديق له يشغل وظيفة المدير العام المشرف على أكبر حديقة عمومية بروما، وقد تعرف عليه قبل أن يهاجر ويترك البلد، إذ كان مكلفًا بإدارة حديقة التجارب بالحامة، الحديقة التاريخية التي تم تصوير فيلم طرازان بها عام 1932. الإيطاليون يحترمون الكفاءة ويحبون بلدهم كثيرًا، يريدونه أن يكون استثنائيًّا بحدائقه ونسائه وفنانيه وحتى بمَافْيَاه، نحن في إيكوزيوم لم نستطع المحافظة على كثير من غنائمنا الجميلة التي عادت إلينا بعد الاستقلال من الاستعمار الفرنسي، كالحدائق والقصور والمباني والمزارع وشبكة الطرق وشبكة أنابيب ماء الشرب والسكك الحديدية. كان علينا أن نؤسس على ما خلفه الاستعمار، أن نضيف أشياء أعمق في اتجاه تعمير البلاد، لكننا للأسف لم نزد عليها بل خربنا الكثير مما ورثناه كغنيمة حرب. الدا المولود كان دائمًا يشجعني على التفكير في تأسيس فرقة موسيقية. وقد وعدني بأنه سيساعدني كي أطبع قرصًا مضغوطًا أستعيد فيه مجموعة من أغاني بوب مارلي

على طريقتي الخاصة، وهو الذي دفع تكاليف سفري إلى جامايكا كي أزور قبر بوب مارلي. كان يرغب في السفر معي لكن وعكة صحية أصابته ليلة قبل السفر جعله يلغيه، وكان حزينًا.

مدينة آلجي أو إيكوزيوم بدون الدا المولود هي قفر وصحراء وحجر بارد لا يصلح إلا شاهِدَةً لقبر شخص مجهول الهوية، دكانه الذي لا تتجاوز مساحته اثني عشر مترًا مربعًا يعادل مساحة المدينة كلها، هو قلب المدينة النابض جمالا، وُرودُهُ المصففة والمصنفة والمعروضة بشعرية على الرصيف وخلف الواجهة تعيد الروح والحلم والتفاؤل إلى أبناء هذا البلد المتعب والجريح. كان يقول وهو ينظر إلى وروده وهو يصففها: "من يتأمل هذا الورد لا يهرب من هذا البلد".

يمشي بوب مارلي بجوار الدا المولود خجولاً لا يرفع نظره إلى المارة إلا لمامًا. يحمل كعادته قيثارته على ظهره كما يحمل طفلاً مدللاً. يرتدي لباس البحارة المخطط وما هو ببحار، لكنها عادته في الملبس، منذ أن دخل المسرح ممثلاً في فرقة "النجمة" التابعة لبلدية الجزائر العاصمة بعد أن سقط عليها من السماء كما سقطت سانت مونيكا من السطح. جميع الأدوار التي أداها كانت لا تخرج عن شخصية عامل

كادح أو نقابي غاضب أو شيوعي مطارد أو فنان موسيقي مهمش. لِأن موظف الحالة المدنية بالبلدية قد سجله باسم أنثى "مهدية" بدلا من المهدي، فقد تحصل على بطاقة الإعفاء من الخدمة الوطنية، مع أن بوب مارلي كان يرغب في الالتحاق بهذه التجربة العسكرية المثيرة، فالثوري في رأيه يجب أن يجرب حمل السلاح ومعرفة استعماله تحسبًا لغد قريب أو بعيد، لكنه كان سعيدا أن يعيش في اسم أنثى! التحق بوب مارلي بفرقة موسيقية شعبية كانت تنشط بالحي وهو من عشاق حميد الزاهي سلطان الطرب الشعبي في العاصمة، إلا أنه لم يتمكن من المواصلة، فسقط بالصدفة ذات يوم على شريط كاسيط لبوب مارلي، فأعجب به، صوتًا وكلمات وإيقاعًا، موسيقى الريقي (Reggae) أدهشته، ومن يومها بدأ في تقليده شكلاً ومضمونًا. أطلق شعره وغطّاه بقبعة ذات الألوان السداسية، الأبيض والأصفر الكناري والأحمر والأخضر والأسود. تعلم الإنجليزية بسرعة مذهلة من خلال متابعته لبرنامج ليلي لتعليم اللغة الإنجليزية للأجانب على أمواج هيئة إذاعة (BBC) البريطانية.

سافر بوب مارلي إلى جامايكا، ووقف على قبر بوب مارلي بمدينة سانت آن (Saint Ann)، وزار المتحف المخصص للمغني بالعاصمة كينغستون، وتصور في أماكن بجامايكا

مرتبطة في الذاكرة الجمعية لبوب مارلي. وفي سفره هذا راودته فكرة البقاء في مدينة سانت آن للعيش فيها والزواج بواحدة من عائلة بوب مارلي، وهي شابة رشيقة تشتغل مشرفة على أرشيف صوره الموضوعة في المتحف المخصص له. كل شيء كان مخططًا لولا أن نصيرة زوجته هاتفته تلك الليلة وأخبرته أن عليه أن يعود إلى البلد، فقد أنجبت له ولدًا سمته كما كان متفقًا يانيس، الطفل الذي لم يعش سوى عشرين يومًا ليلقى حتفه مختنقًا تحت جسد أمه ليلاً بعد أن نامت عليه.

مكالمة نصيرة في آخر الليل هي التي جعلت بوب مارلي يتراجع عن مشروع الزواج وعن فكرة البقاء في جامايكا.

نظر بوب مارلي إلى الدا المولود وهما ينزلان شارع محمد الخامس في اتجاه ساحة موريس أودان، حيث المتظاهرون يقبلون جماعات وفرادى، نساء ورجالاً، شبابًا وشيوخًا، قائلاً حيث عيناه تفصح أكثر من كلامه بكثير:

"أنا متأكد أني سأعود إلى هناك، إلى سان آن، وسأتزوجها وسنجوب العالم نؤدي معًا أغاني قريبها الأسطورة. تخيل لو أني تزوجتها وشكلنا فرقة موسيقية اسمها "بوب مارلي دريم"، وغيرت اسمي من مهدي أو مهدية أخريف إلى "بوب" أو أي اسم آخر لا يحيل على أسمائنا الملعونة

عالميًّا، التي أصبح الجميع يخاف منها. تمنح جواز سفرك في أي مطار من مطارات العالم، بمجرد أن يقرأ شرطي الحدود اسمًا له رنة أو إحالة عربية أو إسلامية ينظر إليك كأنما يبحث عن سلاح نووي في عينيك أو في جيبك، قد تلقي به على هذا البلد لتردي ساكنته رميمًا. كنت سأجوب العالم مع قريبة بوب مارلي وكنا سنجني أموالاً كثيرة. الحقيقة أنا لا تهمني الأموال أبدًا، ما أبحث عنه هي الشهرة الفنية، أريد أن أكون مثل دحمان الحراشي أو الشيخ الحسناوي أو عبد الحليم حافظ أو إيدير أو جورج براسانس أو ألفيس بريسلي.. أنا خلقت للفن والثورة والحياة والحرية، هذا البلد أتعبنا كثيرًا، أخفقنا في بناء دولة وطنية معاصرة بعد ثورة التحرير، وأخفقنا بعد ذلك في كل الثورات والانتفاضات في الجزائر المستقلة. خرجتُ مع الخارجين في 5 أكتوبر 1988، وقبلها خرجت في تظاهرات الربيع الأمازيغي في 20 أبريل 1980، وخرجت في تظاهرات الربيع الأسود في جوان 2001، وفي كل المرات كنا نعود إلى بيوتنا بقائمة من الشهداء، ويعود النظام بقائمة من الأسماء الجديدة أو التي يتم إعادة تدويرها من جديد. تعبنا، تعبنا، تعبنا، ثم يصرخ عاليًا:

"بوفوار أساسان... نظام مجرم Pouvoir Assassin". وترد عليها أمواج المتظاهرات والمتظاهرين في صوت واحد: "بوفوار

أساسان... نظام مجرم". ينتشي بوب مارلي، يتأمل هذا الحشد البشري الهائل فتغرورق عيناه بدمع سخي دافئ، دموع الفرح والبلد يستيقظ أخيرًا بعد عشرين سنة من البهتان والكذب والفساد. يحملونه على الأكتاف وهو يغني للحرية، جسم نحيف وقيثارة صادقة وحنجرة دافئة، يمشون به مئات الأمتار وهو يغني واقفًا على أكتاف المتظاهرين أغنية بوب مارلي الشهيرة "لا توجد نساء لا تبكي" (No Women No Cry)، المتظاهرات تزغردن وترددن معه، فغالبيتهن يحفظن كلماتها.

ـــــــــــ يقيم

يقيم بوب مارلي في هذا الحي بآلجي منذ ثلاثين عاما أو أكثر. جميع الجيران يعرفونه، الصغار والكبار، النساء كالرجال يعاملونه باحترام مع أنهم يعرفون أنه رجل موسيقى وفن، وأنه يستهلك النبيذ وأنواعًا أخرى من المشروبات الكحولية بشكل يومي تقريبًا. لم يتوقف يومًا عن عادته هذه مع أن الحي عاش في التسعينيات موجة تَدَيُّن متطرف رهيبة، حتى إن بعض عناصر الفرقة الموسيقية لبلدية آلجي إيكوزيوم أطلقوا اللحى وما عادوا يغادرون مسجد الفضيل الورتلاني، وأن المايسترو سفيان بولعراوي صاحب العزف العجيب على العود والمندولين اختفى عن الأنظار، ويقال إنه التحق بصفوف الجماعات المسلحة المتمركزة بجبال الزبربر، ولم يظهر له أثر حتى الآن، وقد أحزنه وقتها هذا الاختفاء كثيرًا

وبكى عليه بكاء مرّا. وحده بوب مارلي لم يغير من عاداته، سلّم أمره لله وللقدر وظّل يمارس حياته دون تغيير باستثناء ساعة عودته إلى البيت، فقد أصبحت مبكرة خاصة أيام الإعلان عن حالة منع التجول. ومع ذلك فقد اخترق ولمرات عديدة هذا القانون الصارم ليجد نفسه في الشارع بعد انتهاء ساعات التجول المسموح بها ليقضي ليلته في المخفر، وحين يتعرف إليه رئيس المخفر المناوب، حيث غالبية رؤساء المخافر بالعاصمة يعرفونه، يركبوه سيارة الشرطة ويوصلونه حتى باب العمارة دون أن يستفسروا حتى عن عنوانه، فالجميع يعرف مقر إقامته.

بوب مارلي خادم الجميع في الحي، إذا ما مرض أحدهم أول من يُطلَب للمساعدة هو بوب مارلي، فيكون عند المشتكي في رمش العين، إذا تأخر أحد الأبناء في العودة إلى البيت لا يُسْأَل عنه سوى عند بوب مارلي، الذي يعرف جميع مخافر البوليس في المدينة، يحفظ حتى أرقامها التليفونية، وعلى الفور يكلم المناوبين في المخافر واحدًا واحدًا فلا ينام له جفن إلا إذا أعاد المتأخر إلى سريره بين أفراد أسرته، الشيء الوحيد الذي كان ينفر منه هو تلبية طلب خدمة مرتبطة بجنازة، فهذه مهمة يعشقها عبد الرحمن الغسّال، فهو يكره ولائم الجنازات، يهرب من منظر صفوف الكراسي التي

توضع على الرصيف عند مدخل البناية التي فيها فقيد، يتجنب المرور أمام أي خيمة منصوبة وسط الشوارع أو في ساحة عمومية لاستقبال المعزين ولتقديم عشاء العزاء. لم يأكل يومًا لقمة في وليمة عزاء، لم يمش في حياته في جنازة، حتى يوم وفاة زوجته نصيرة وحتى لا يضطر إلى المشي في جنازتها غادر العاصمة نحو بجاية باكيًا، بعد أن تولى عبد الرحمن الغسّال الإشراف على كل شيء، ليقضي هناك ثلاثة أيام في غرفة بفندق شعبي ثم عاد في اليوم الرابع. وقبل أن يدخل إلى البيت عرج على المقبرة التي دفنت فيها، وقف عند ظل حائطها الخارجي، نادى على حارس المقبرة من بعيد دون أن يدخلها، منحه بعض المال وقنينة نبيذ، ثم طلب منه أن يسقي قبرها بسطل ماء بارد، وأن يقرأ عليها فاتحة الكتاب. نظر إليه الحارس الأعرج وبحركات أفهمه أنه أبكم ولا يحفظ من القرآن شيئًا. نظر إليه بوب مارلي مليًّا ثم خاطبه بحركات فهمها الحارس على الفور: "ارفع راحتي كفيك نحو السماء، سيراك الله وسيدرك أنك تقرأ من كلامه عليها حتى وإن كنت لا تحفظ منه آية واحدة. الله يعرف الصادقين دون كلام من خشب". اختفى الحارس وهو يعرج بين القبور حاملاً سطل ماء في يده، سقي القبر الذي لا يزال ترابه جديدًا. وكما طلب منه بوب مارلي رفع راحتي كفيه إلى السماء دون أن يقول

شيئًا؛ لأنه لا يعرف شيئًا مما يقوله من كلام الله، لكن مع ذلك شعر الحارس برعشة تشبه المس الكهربائي تسري في أطراف بدنه، فتكلم لسانه بما لم يعلم وبما لم يتكلم به من قبل. إن الله رآه. نهض بوب مارلي الذي كان جالسًا تحت سور المقبرة بعد أن رأى الحارس الأعرج عائدًا في اتجاه المدخل وقد أدى واجبه. حيّاه من بعيد بإشارة من يده، ثم غادر المكان وهو يسمع صوت زوجته نصيرة تشكره بعبارات رقيقة، وهي التي تحسن أدب الكلام نظرًا إلى اشتغالها سنوات في شركة الخطوط الجوية الفرنسية. أخرج بوب مارلي سيجارة حشاها بقليل من الحشيش، ولعّلها ثم سحب نفسين متتاليين، ثم اختفى في المدينة. وفي المساء وعند قدمي العمارة غنى لنصيرة ولقبرها وللحارس المقبرة الأعرج، اجتمع حوله أبناء الحي وعانقوه وغنوا معه!

______ قال

قال بوب مارلي للدا المولود وهما ينزلان شارع محمد الخامس في اتجاه ساحة موريس أودان:

على مدى نصف قرن وهو كل عمري ظللت أكره يوم الجمعة. الجمعة يوم ميت، ساعاته باردة المفاصل، يوم حزين كما الأحد عند النصارى والسبت عند اليهود. أيام الله حزينة في كل الديانات. يوم الجمعة لا شيء يسمع فيه سوى أذان المساجد بأصوات غير جميلة، لا تعرف فن غناء الأذان الذي هو فن راق كان يدرس في مدارس موسيقية متخصصة في قرطبة وبغداد وحلب وفاس من قبل أكبر الموسيقيين ومُجَوّدي القرآن. الجمعة يوم لا تعبق فيه سوى رائحة بهارات الكسكسي المطبوخ باللفت والحمص والكوسة الصفراء. يوم الجمعة لا أغادر البيت، أقضي يومي في حفظ كلمات أغاني بوب

مارلي الرومانسية الثورية، وفي إعادة مشاهدة تسجيلات اللقاءات معه والأفلام الوثائقية حوله، والتي سبق لي أن شاهدتها عشرات المرات دون ملل، وأكسر هذا الروتين الجميل بقراءة بعض الروايات البوليسية لجون لو كاري، وأتفرج على صور بعض الكتب الخاصة بالتنقيب عن البترول وأخرى عن الاحتباس الحراري وذوبان ثلج القطب الشمالي ونَفَاق الكائنات الجميلة المدهشة التي تعيش فيه، وأشرب القهوة بشهية وبكمية كبيرة دون توقف. أستحم ثلاث مرات، وأتخاصم مع نصيرة خمس مرات، ثم أصالحها، ونقوم بممارسة الحب مرتين، وأمنعها من طهي الكسكسي لأني أكره تناوله يوم الجمعة، أحبه يوم الثلاثاء، لماذا يوم الثلاثاء؟ لست أدري، وحتى بعد موت نصيرة احتفظت بالعادة نفسها.

اليوم تغير طعم يوم الجمعة في فمي، وفي رأسي، وحتى على خيوط قيثارتي، أستعد لاستقباله ابتداء من يوم الثلاثاء. أصبحت الجمعة ضيفًا رقيقًا، حيًّا، مثيرًا، عزيزًا، له ولأجله أتدرب على أغاني بوب مارلي المعقدة والتي بها جنون ظاهر في الموسيقى وحفر في الأحاسيس الإنسانية في الكلمات. وأحفظ أيضًا كلمات صديقي الدا المولود لأغنّيها ساخنة طالعة من صخب الشوارع وحرارة المسيرات. أشتري كمية قليلة من الحشيش، فهو يساعدني على التألق وعلى الصدق وعلى

الثـورة، يـوم الجمعـة لا أشـرب نبيـذًا ولا أي مشـروب كحـولي آخـر، هـي عـادة قديمـة التزمـت بهـا منـذ زواجـي بنصـيرة، لـذا أعوض عن ذلك بتدخين بعض سجائر حشيش. اليوم أصبحت الجمعة يوم عرس جماعي في الجزائر كلِّها بعد أن كان يومًا شبيهًا بحفل عزاء في جنازة مجهول، لا يسمع فيه سوى الأذان بأصوات منفرة غالبيتها، وسلسلة دروس دينية مكرورة تُبَثُّ دون انقطـاع علـى الشاشـات التليفزيونيـة، وصـور المصـلين وهـم يتوضـؤون، فـي إرسال مباشر علـى قنوات تليفزيونية فاقدة لكل حس جمالي، المضمضة والاستنشاق والاستنثار على المباشر. خلال نصف قرن هو كامل سنوات عمري، أي ما يساوي ألفين وخمـس مئـة جمعـة بالتمـام والكمـال، وحتـى يـوم الجمعـة 22 فبرايـر، كنـت دائمًـا أتمنـى ألا يطـول يـوم الجمعـة أكثـر مـن ساعتين. اليوم أتمنى أن يطول ليفيض على الأيام الأخرى، لا السبت ولا الأحد ولا الأربعاء ولا الأيـام الأخرى تسـاويه، أريـد الجمعـة أن يكـون يومًـا طـويلاً حتـى يسـقط الكـذب وتتعـرى شجرته.

لقد حَرَّرْنا الجمعة من الحزن والنفاق الديني فَحَرَّرَتْنا من الخوف ومن النظام أو كادت!

ننـزل فـي شـارع محمـد الخـامس باتجـاه سـاحة مـوريس أودان، المتظـاهرون يفدون إليها مـن كـل الجهـات، مـن كـل

الشوارع والأزقة، الأعلام فوق الأكتاف والأناشيد في الحناجر والفرح باد على الوجوه.

يبدو لي كأن كل أبناء وبنات آلجي إيكوزيوم جميعهم يعرفون بوب مارلي، الشباب والشيوخ، يسلم عليهم واحدًا فواحدًا إذا ما مر بشارع، أي شارع كان، أي حي كان. يصافح هذا سائلاً عن صحة الأب أو الأم أو الأخ المهاجر في مونتريال أو المقيم بمدينة ليون، ويشير بيده إلى الآخر على الرصيف المقابل، يتكلم مع هذا بالفرنسية ويخاطب ذاك بالدارجة العاصمة ومع ثالث بالأمازيغية، مع أنه من قرية صغيرة اسمها طابلات بريف مدينة المدية الواقعة جنوب غرب العاصمة، على بعد أزيد من مئة كيلومتر، حيث استعمال اللغة الأمازيغية في حديث الساكنة نادر، إلا أنه تعلمها من نصيرة التي تنزل من قرية عين الحمام ميشلي سابقًا بأعالي جبال مدينة تيزي وزو، تعلم الأمازيغية في ظرف ثلاثة أشهر! من يحب امرأة بجمال نصيرة يتعلم لغتها في رمش البصر! اللغة جزء من تفاصيل مفاصل الأنثى المثيرة، ثم ظل يستعملها مع زملائه في العمل.

اشتغل بوب مارلي لمدة تزيد عن سبعة عشرة سنة تقريبًا مُحَصِّل فواتير الشركة الوطنية للكهرباء والغاز، قبل أن يحوّل إلى قسم المكتبة والأرشيف بالمؤسسة نفسها. يعرف إيكوزيوم

بيتًا بيتًا، أسماء العائلات اسمًا اسمًا، الراحلين والمقيمين القدامى والوافدين الجدد. كل شيء مرتب في رأسه، فهو قادر أن يعطيك كم خطوة يمكن أن يخطوها الواحد ليصل من بيت فلان إلى بيت فلان، يحفظ عدد درجات السلالم في عمارات إيكوزيوم كلها تقريبًا، العمارات التي جميع المصاعد فيها معطلة تقريبًا، ويحفظ أرقام كثير من العدادات الكهربائية في بيوت بعض العائلات. كثيرًا ما عانى من مسؤوليه المتشددين في تحصيل قيمة الفواتير، كلما طلبوا منه قطع الكهرباء على بعض العائلات يتردد، ثم يؤجل ذلك إلى يوم آخر، ويستحي أن يقطع النور عن أطفال يحضرون واجباتهم المدرسية، أو عن أسرة تشاهد مسلسلاً تليفزيونيًّا حتى ولو كان مصريًّا، وهو الذي لا يحب المسلسلات المصرية ولا التركية ولا المكسيكية التي غزت برامج التلفزة الوطنية.

يقول للدا المولود: يعز عليّ أن أقطع النور عن أبناء بلدي، والكهرباء من بترول الصحراء، أفضل أن يعاقبني المسئول بخصم يوم من مرتبي ولا أن أُشَمِّعَ عدادًا كهربائيًّا لعائلة بأطفال صغار.

ثم يضحك كالطفل، ونمشي في اتجاه ساحة موريس أودان حيث تتجمع مئات الآلاف من المتظاهرات والمتظاهرين، وهو يُسلِّم على المارة، يُذَكِّرُهُ بعضهم بحكاية

فاتورة تأخر دفعها ستة أشهر وأكثر، ويضحك، ويُسَلِّم على الآخر، ثم يسحب نفسًا من سيجارته ذات التبغ الساحر.

ثم يعود إلى الحديث عن زوجته نصيرة بحرقة: مع أن نصيرة زوجتي عملت بشركة الخطوط الجوية منذ أن تعارفنا تقريبًا لمدة تجاوزت الربع قرن، لكني لم أركب في حياتي الطائرة إلا مرتين حين سافرت إلى بلد بوب مارلي. حتى حين منحتني لجنة الخدمات الاجتماعية لشركة سونلغاز رحلة لأداء عُمْرَة مجانًا أنا وزوجتي، تنازلت عنها لبواب الشركة، أنا لا أخاف من الطائرة لكني أحب الأرض أكثر، لا أحب أجنحة الطائرة، أريد أن أصنع لنفسي جناحين أطير بهما، وجناحي هما الغناء والموسيقى.

لقد أحببت نصيرة كثيرًا، بجنون يا بو رب، كنا صغيرين نمثل في نفس فرقة المسرح البلدي، كانت شعلة من حياة، جمر، هي التي جرجرتني للمسرح والموسيقى، كانت ترقص بشكل هائل، وكانت تطلب من المخرج أن يمنحها أي دور فيها رقص أو من كاتب المسرحية أن يضيف إلى دورها رقصة قبائلية أو شاوية أو تلمسانية، أما أنا فكنت أكتفي بدور واحد تقريبا في جميع المسرحيات التي مثلت فيها: ألعب دور النقابي مرات بتوابل اشتراكية ومرات بتوابل فوضوية ومرات بتوابل انتهازية... على كل أنا لا أحفظ النصوص على

العكس من نصيرة التي كانت تحفظ أدوارها كلمة كلمة، حرفًا حرفًا، فاصلة فاصلة، أنا أرتجل أدواري كما أرتجل الحياة، أخرج في الصباح من الشقة دون أن أعرف طريقي أو برنامجي. تعجبني المفاجأة، أرتاح حين ألتقي أحدهم يدعوني إلى فنجان قهوة ثم يبدأ في سرد حياته الشخصية. البارحة دعاني أحدهم إلى طاولة، طلب لي قهوة سوداء ثم روى لي حكايته الغريبة، قائلاً: "كنت أسوق سيارتي، كان ذلك في شهر يوليو، حرارة جهنمية، وإذ برجل يمشي على قارعة الطريق. قلت في نفسي عليّ أن أركبه وأخلصه من هذه الحرارة ولو لبعض كيلومترات. حين توقفت وطلبت منه أن يصعد كي أوصله إلى أقرب نقطة قريبة من مقصده رفض، حاولت ثانية فرفض، انتبهت إلى أن هناك على المقعد الخلفي للسيارة قبعة صيفية، سحبتها ثم منحتها له عله على الأقل يقي بها رأسه من أشعة الشمس قليلاً ما دام أنه رفض الركوب معي. رميتها في اتجاهه وأنا أهم بالإقلاع، أشار إلي بالتوقف بعد أن التقطها، خففت من السرعة، قال لي وهو يهم على وضع القبعة على رأسه: شكرًا لك يا سيدي، ستجد قبعتك هذه في بيتي الكائن بقرية بوغوفالة، مسكني هو آخر منزل في الزقاق المؤدي إلى المقبرة. تركته ثم واصلت طريقي، وفي اليوم التالي وبعد أن أنهيت ما كان علي القيام

به، تذكرت وقلت في نفسي: لماذا لا أمر إلى بيت رجل البارحة، أسترجع قبعتي وأسأل عنه إذ بدا لي من حديثه أنه شخص مستقيم وملامح وجهه مريحة؟ وبالفعل انطلقت نحو قرية بوغوفالة التي لم تكن بعيدة عن القرية التي أسكنها، ولم يكن صعبًا عليّ الاستدلال على بيت الرجل، إذ إنه بمحاذاة المقبرة، حين وصلت دققت الباب، خرجت امرأة أربعينية، وسيمة ومبتسمة وخجولة ومترددة فباشرتها قائلاً: أنا صاحب السيارة الذي رأى زوجك البارحة على الطريق وطلب منه أن يوصله، لكنه رفض وأعرته قبعتي وها أنا ذا جئت لاسترجاعها، فهو الذي دلني على العنوان. ظلت ساكتة وهي تحدق فيّ، ثم وصفت لها الرجل، شكله وقامته وبعض ملامح وجهه واللكنة التي في كلامه وحتى طريقة مشيته ولباسه، فقالت السيدة وقد أدركت أنني أبحث عن أدق التفاصيل العالقة في ذاكرتي كي أدلل على الرجل زوجها، أشارت إليّ بذراعها وكأنما اقتنعت بما جئت على ذكره ثم قالت: إنه هو بالفعل زوجي السي يحيى عمراني رحمه الله. لقد لقي ربه منذ ثمان سنوات وستة أشهر وثلاثة أيام، وهو مدفون هناك بالمقبرة. وأشارت بأصبعها تجاه الغرب، ثم سارت قدامي بخطى مترددة وتبعتها حتى باب المقبرة، ثم سرنا بعض أمتار بين القبور المتهالكة القديمة وغير المنظمة وقد نبتت عليها

حشائش وحشية كثيرة. توقفت عند قبر قديم، أدارت نظرها تجاهي ثم قالت: هذا قبر زوجي المرحوم. ثم اقتربت أكثر من القبر، قرفصت وأدخلت يدها حتى الذراع في حفرة موجودة على يمين القبر عند شاهدة الرأس تمامًا، وأنا أتابع بدهشة، ثم سحبت قبعتي من عمق الحفرة وقالت لي: أليست هذه هي قبعتك؟ تراجعت قليلاً، ثم أضافت: زوجي لا يسرق ولا يضيع حقًّا، كلما أخذ شيئا من أحد المواطنين ثم جاء هذا الأخير يطلبه في اليوم التالي وجدته في هذه الحفرة. هنا يترك لي رسائله. ثم مدت يدها ثانية وأدخلت ذراعها في الحفرة وأخرجت كيسًا بلاستيكيًا أخضر، ثم ابتسمت وقالت وهي تنظر إليّ وقد تغير وجهها تمامًا ولم تعد هي المرأة نفسها التي استقبلتني على عتبة البيت قبل قليل وسرت خلفها إلى هذه المقبرة، بدت لي امرأة شمطاء في خريف العمر، قالت لي وهي تفتح الكيس: إنه أرسل لي ما أقتات عليه هذا الأسبوع، هي عادته، يرسل مصروف الأسبوع كل جمعة. لم أستطع التأكد من أننا في يوم جمعة".

نظرتُ إلى الرجل فلم أجده قبالتي على الطاولة التي دعاني لمشاركته فنجان قهوة، اختفى، يسحب بوب مارلي من سيجارته نفسًا آخر عميقًا ثم آخر!!

يتقدم بوب مارلي والدا المولود في وسط الجماهير العفيرة.

هذه

هذه الجمعة، إيكوزيومْ كبقية المدن الأخرى في عرس شعبي عارم، في شوارعها وساحاتها العمومية عدد المتظاهرات من النساء أكثر من عدد الرجال. لقد هجمن على ساحات المدينة وشوارعها. إنه عيدهن، نساء جميلات من كل الأعمار غالبيتهن ملتحفات بالعلم الوطني وبالعلم الأمازيغي، الموسيقى والأناشيد الوطنية والشعارات تجيء من كل مكان: "يتنحاو قاع"، "يرحلون جميعًا"، اللغة الدارجة الجزائرية تكتسح الشعارات فتصبح لغة الشعر والنكتة الشعبية السياسية القاصمة، وقد كُتِبتْ بالحرف العربي أو اللاتيني، لا يَهمُّ. تلاحم مثير والنظام مرتبك. العملة الصعبة ارتفعت قيمتها في السوق السوداء، أصحاب المال الفاسد يشترون اليورو والدولار بكميات كبيرة ليتم تهريبها إلى الخارج.

الجزائر خارج السيطرة والنظام بات معزولاً.

باقة الورد في يدي، أمواج المتظاهرين تدفع بي يمينًا ويسارًا، الكل يرقص وكأنه في عرس. لم أنتبه حتى وجدتُني أمام الرخامة التذكارية للشهيد موريس أودان، نظرت إلى صورته المحفورة على الرخامة الكبيرة وقرأت الفقرة المنقوشة بالعربية وبالفرنسية التي تخلده، ثم التفت فوجدت صفًّا من النساء يزغردن للشهيد الذي يجتمعن اليوم في ساحته لاحتفاء بساعة الحرية الثانية، الاستقلال الثاني. سحبت من الباقة الوردة الأولى، منحتها لسيدة خمسينية ثم أخرى للثانية وهكذا دواليك، حتى لم يبق في الورق السيلفاني غير بعض سيقان الحشيش الأخضر الذي تُرَتَّبُ فيه باقة الورد. وكما منحت الورد للنساء وردة وردة، اقتربت جميعهن من أسفل الرخامة ووضعن الواحدة بعد الأخرى ورودهن تحية للشهيد وتحية لزوجته إيفلين، التي قضت حياتها وفية لزوجها متنقلة في المحاكم الفرنسية، بحثًا عن الاعتراف باغتياله من قبل العسكر الفرنسي، لا لشيء إلا لأنه انحاز إلى جبهة التحرير الجزائرية وفضل الانضمام إلى صفوفها. كان موريس أودان يريد الوقوف في المكان الصحيح في مسيرة التاريخ.

كما في أثينا قديمًا، أبناء وبنات إيكوزيومْ خلقوا مسرحًا في الشارع، نقلوا المسرح إلى ساحة البريد المركزي، جعلوا من

سلالم هذه البناية التاريخية الضخمة ذات الهندسة العثمانية- الأوروبية الهجينة والجميلة مدرجات للجمهور، وشرعوا في تمثيل مسرحية النظام المتهاوي، أحضروا أقنعة تمثل ملامح وأشكال وجوه رؤساء حكومات ورؤساء أحزاب نافذة ووزراء وشخصيات ثرية صاحبة الحل والربط لبسها ممثلون وممثلات، بين السخرية السوداء والكلام السياسي عالي الحس النقدي، يقوم الممثلون والممثلات بمحاكمة علنية وشعبية لرموز النظام الفاسد الذين "أكلوا" البلاد، يضحك الجمهور بتلقائية ويصفق ويصفر، بعضهم لا يستطيع البقاء على الحياد في صمت ولا يكتفي بالتفرج والتعليق، بل يجد نفسه مدفوعًا إلى المشاركة في المسرحية، يمثل مع الممثلات والممثلين أو يضيف جملة في الحوار. الجميع في مسرح حر ومفتوح، ما كنا لنتوقع أن كل هذا سيتحقق في جزائر ظلت مكبلة بالأمن والقمع والمال الفاسد أكثر من عشرين سنة، بل منذ الاستقلال، أي لأزيد من نصف قرن.

الجميع يرقص، صغارًا وكبارًا، نساء ورجالاً. الحرية طعم نادر في هذا البلد. لم يتذوق الجزائري عسل الحرية إلا مرة واحدة في حياته، كان ذلك يوم الإعلان عن الاستقلال في 5 جويلية 1962، يوم طُرِد الاستعمار الفرنسي ورفع الجزائريون العلم الوطني، لكن لم يطل الفرح طويلاً حتى غرقت البلاد

في استعمار آخر، استعمار الأخ لأخيه، وذلك أشد مرارة ومضاضة.

يتقدم بوب مارلي من المربع الذي تُلْعَبُ فيه المسرحية، بخفة يتسلق السلالم ويبدأ في أداء أغنية بشكل عفوي وارتجالي، وينسجم أداؤه دون سابق تمرين مع أعضاء الفرقة. يغني الجمهور معه، الناس تصور وتسجل فيديوهات لبوب مارلي، والممثلات والممثلون بأقنعة تمثل وجوه وزراء ورؤساء حكومة فاسدين وأمناء أحزاب السلطة. بعض الحاضرين يحييه باسمه، فبوب مارلي لا يمر دون أن يثير انتباهًا، فالكل هنا تقريبًا يعرفه، حتى إن بعضهم كان يطلق عليه اسم مُسْيو سونيلغاز لأنه قضى سنوات طويلة محصلاً لفواتير الغاز والكهرباء.

يتابع الدا المولود أداء الممثلين في مسرحية مفتوحة مبتسمًا وهو يوزع الورود على بعض النساء والشيوخ الغارقين في العرض وكلهم ابتسامة. إنها ثورة الابتسامة. فجأة يتقدم بوب مارلي وقد وضع قيثارته جانبًا، يقف كالمسكون بجن في وسط الحلبة، ينظر ذات اليمين وذات اليسار، ثم بين قدميه، ثم نحو السماء، ويشرع في أداء رقصة جامايكية بتناسق عجيب ومثير اندهش لها الحاضرون. لم أكن أتصور بوب مارلي بهذه اللياقة الجسدية وهذا الاندماج الفني والجرأة، وهو الرجل الخجول الذي لا يرفع عينًا حين يمشي في الشارع.

رجال الأمن الواقفون بكثافة على الرصيف يراقبون مشاهد المسرحية ورقصة بوب مارلي بعين غريبة فيها تساؤل وفيها مكر كثير، إنهم يبيّتون لأمر ما.

الخامسة والنصف مساء، بهدوء وانتظام شيئًا فشيئًا تبدأ الجماهير الغفيرة بإخلاء الساحات والشوارع، تعود إلى بيوتها في انتظار مسيرة الجمعة القادمة، وعلى الفور تنتشر مجموعات من الشباب يحملون أكياسًا بلاستيكية كبيرة ومكانس، ويشرعون في تنظيف الشوارع والساحات مما ظل فيها من أوساخ: قناني الماء البلاستيكية الفارغة، بقايا تغليف سندويشات، بعض المناشير والأعلام الورقية الممزقة... دقائق فتصبح ساحتا البريد المركزي وموريس أودان والشوارع المؤدية إليهما، كشارع محمد الخامس وديدوش مراد والعربي بن مهدي وحسيبة بن بوعلي والدكتور سعدان وعبّان رمضان وكريم بلقاسم، نظيفة كأن لم تمش عليها منذ ساعات الصباح الأولى أرجل مئات الآلاف من المتظاهرات والمتظاهرين.

أحمل قيثارتي على ظهري، أراقب الشباب المتطوع للتنظيف وهو يقومون بعملهم بكثير من الحماس والعزيمة، فأقول للدّا المولود: لو أن النظام الجزائري كان صادقًا في إدارته الشأن الجزائري منذ الاستقلال لكان صنع من هذا البلد كوريا الجنوبية أو الصين أو ألمانيا.

يصمت الدّا المولود ويجيبني بالأمازيغية: الفساد، الفساد، والمال السايب يعلم السرقة. لقد تم إفساد الطبقة السياسية ثم الطبقة المتوسطة من الإداريين والمثقفين والإطارات، ليصلوا في المرحلة الأخيرة إلى محاولة إفساد أخلاق الشعب كاملاً من خلال شراء الذمم، وزرع ثقافة الطمع فيه وهم يطلقون وهم المليون سكن بلا مقابل.

نظرت إلى الدّا المولود مستغربًا وعيه السياسي وأنا الذي كنت أعتقد أنه رجل غارق في رومانسية وروده وكتابة رسائل عشق شعرية لامرأة إيطالية تسكنه.

لا يخطو بوب مارلي خطوتين في الشارع حتى يمسك به أحدهم طالبًا منه أخذ صور معه، أو ليتبادل معه عبارة ود وحب واعتراف؛ لأنه لم يقطع عليه الكهرباء على الرغم من تأخره في تسديد الفاتورة بسداسي كامل.

يقول بوب مارلي: لقد تغيرت سيكولوجية الجزائري. لقد حررته الثورة هذه، فأصبح صاحب نكتة سياسية واجتماعية وجنسية عميقة، وهو الذي ظل عبوسًا لا يضحك ولا يُضحك على مدى نصف قرن كامل.

ها هو الجزائري يتصالح مع الحياة، مع الابتسامة، مع السخرية، مع اللغة الشعبية الشعرية العالية.

نمر أمام مكتب شركة الخطوط الجوية الفرنسية. يعلق

بوب مارلي بحزن وكأن قطعة ملح تستقر في حنجرته: هنا كانت تشتغل نصيرة، هي تعمل في الطيران وأنا أخاف ركوب الطائرة، ركوب ظهر الحمار أو ظهر البغل أضمن للرحلة، والسقوط من فوقها على الأرض غير مؤذ لأن المسافة قصيرة.

ونضحك كالأطفال، ونغادر وقد سقط الليل على المدينة.

عدت إلى البيت. استقبلتني القطة سانت مونيكا باستغراب وكأنما في نظراتها عتاب على هذا التأخير. حاولت أن تَحْرُد لكني راضيتها بأن فتحت لها علبة جديدة من الباتيه، وبمجرد أن اشتمت رائحة سمك السلمون حتى نسيت العتاب وبدأت تتشبث بي وتتمسح بأطراف قدمي كعادتها.

ـــــــــ أربعون

أربعون يومًا تمر على بداية المسيرات الأسبوعية.

فتحت التلفزيون على قناة وطنية، نقاشات حامية حول الحراك، وجوه تريد أن تركب الثورة، وأخرى تريد أن تنتقم ضد من أقصاها خلال الفترة الماضية، وفجأة تقفز على الشاشة كلمة إشارة "عاجل" بالخط الكبير الأحمر: "الحاكم بالله قزمان أبو نسوان يقدم استقالته".

التليفزيون يعرض صورًا مسجلة للحاكم قزمان أبو نسوان مرتديًا عباءة تقليدية بسيطة، وهو الذي كان من قبل يلبس الدمقس والحرير يمشي وكأنه يطير أو يرقص، رجل متكور على نفسه متهالك على كرسي بسيط، غارق في قراءة رسالة الاستقالة بتأمل وتمعن، وكأنما يتأمل مصيره الذي لم يكن ينتظره والمرسوم بدقة بين هذه الحروف، في هذه عبارات هذه

الفقرات القليلة. بدا صاحيًا، يقظًا، في عينيه شرارة، وهو الذي كان يظهر، من خلال الأخبار المتداولة بين العامة والإشاعات، أنه في حالة صحية ميؤوس منها. لقد حركته الثورة، أيقظته من مسرحية "الميت/ الحي"، قبالة قزمان أبو نسوان وفي حضرته يجلس رئيس بيت الحرب مصحوبا برئيس مجلس الأعيان، وهو الذي من المفترض أن يخلفه فور إعلان شغور منصب الحاكم، وقزمان أبو نسوان يبدو حزينًا هو الذي كان لا يجلس في مجلس إلا محاطًا بنساء مُنْتَقَاة بعناية من قبل مستشارته الكبيرة في شؤون "النفس" و"المشاعر".

الجميع يمثل على الجميع!

لست أدري لماذا تذكرت استقالة حاكم سابق لهذا البلد الذي عليه اللعنة منذ الاستقلال، أهي استقالة أم إقالة؟ هي اللعبة نفسها، اللاعبون جميعهم من الجيل نفسه. لم يعد النظام بحاجة إلى الحاكم كي يحافظ على نفسه ويعيد تجديد آلياته، إذن عليه أن يرحل وبالأحرى أن يُرَحَّل.

يقف عمار النساخ الثاني، الباشْ كاتبْ خلف الستارة، يتابع المشهد بدقة، وبألم أيضًا، يراجع نفسه متسائلاً فيما إذا كانت الرسالة التي حررها مثالية في أسلوبها ولغتها، أنه لم يخطئ في نصب أو رفع أو جر، في وزن كلمة، فالكلمات

في منظوره لها أوزان لا معنى فقط، توزن الكلمات بميزان الذهب والياقوت الأحمر.

هي آخر رسالة يخطها عمار النساخ، الباشا الكاتب المدلل، باسم الحاكم قزمان أبو نسوان المعظم.

هي رسالة الاستقالة أو على الأصح "الإقالة"، رسالة مصير أمة، كتبها الباشْ كاتبْ "المدلل" (Le gâté) بحبر الدموع، متأثرًا بما يجري لولي أمره، فقد أضحى معزولاً وقد بدأ أصدقاؤه من الدائرة الأولى الانفضاض من حوله.

لماذا

لماذا أفكر في كل هذا الماضي البعيد المقيم تحت جلدي وأنا أتهيأ لكتابة رسالة خطيرة ومصيرية، رسالة الاستقالة أو الإقالة: لغويًّا الكلمتان من جذر واحد، "أقال"، ولكن الدلالة تختلف تمامًا، بل تتعارضان، تتصارعان، تتحاربان، الأولى أي الاستقالة تكون عن رغبة بعد شبع وتخمة في السلطة والرياسة، والثانية إجبارٌ وفعل قسري مع رغبة متوحشة لا تزال قائمة في الأحشاء تجاه السلطة. الرئيس المعز بالله مولاي قزمان أبو نسوان كما أعرفه منذ عشرين حولاً يكره أن يقدم له أحد من أعوانه الاستقالة، فهو الوحيد الذي يُقِيلُ ولا حق لأحد حتى أن يستقيل في ظل سلطانه المبجل، فما بالك أن يُجْبَر هو على تقديم استقالته، أراه يطلب مني بصوت متهدج مبحوح لا يكاد يُسمَع أو يُفهَم، ولكني أسمعه وأفهمه

حتى دون نطق لأنني الباشْ كاتبْ رئيس ديوان القلم والإنشاء، يشير إليّ بتحرير رسالة الاستقالة–الإقالة وعيناه الزرقاوتان مغرورقتان بالدمع، وهو الذي ظل حياته خلال عشرين سنة يلعلع، يأمر ويحيي ويميت.

ما معنى أن يُطلب منك أن تقدم استقالتك وفورًا؟ معناها أنك في موقع الإقالة، هنا الإقالة تساوي الإقالة، يتطابقان في المعنى.

أتردد في الكتابة ولكني لا أعصي للمعزل مولاي قزمان أبو نسوان أمرًا.

وأفكر في عبد الحميد الكاتب وابن عمار ويحيى بن خلدون، وأنادي على صونيا محسوب طالبًا منها أن تهيئ لي فنجان قهوة ثقيلة.

______ أنا

أنا عمار النساخ الثاني. لا أريد أن أفلسف الأمر كثيرًا؛ فالبلد في منعطف خطير، والشوارع مليئة بالمتظاهرين، نساء ورجالاً، شبابًا وشيوخًا، تسمع شعاراتهم حتى من ها هنا في مكتبي كرئيس ديوان القلم والإنشاء المطل على الشارع الرئيسي من جهة، وعلى حديقة القصر من جهة ثانية. هذا المكتب اختاره لي رئيس الحجاب، أو ما يسمى باللغة الرومية رئيس الديوان. أفضل كلمة "الحاجب" فهي أبلغ من كلمة "الديوان"! "الحاجب" كلمة تحتوي الطاعة والتستر والحجب. مكتبي يوجد على بعد دقيقتين وثلاثة وعشرين ثانية من مكتب مولاي قزمان أبو نسوان، مشيًا على السجاد الفارسي بالرواق الرئاسي الذي يغير على رأس كل خمسة وأربعين يومًا بالحساب الهجري.

لست أدري لماذا طاولة مكتب المعز مولاي قزمان أبو نسوان المصنوعة من خشب غابات الأمازون العريق عليها دائمًا صحون مملوءة بالفستق الحلبي واللوز المحمص وجوز الكاجو. هي عادة جاء بها من المشرق، من دواوين سلاطين الخليج الذين عرفهم وعاش في أحضانهم قرابة العشرين حولاً، صحون خزفية أصيلة مملوءة دائمًا بهذه الفواكه الجافة التي يقال في كتب التراث إنها تمنح القوة الجنسية المتميزة، وقد ذكرت هذه الفوائد في كتب التراث من **ألف ليلة وليلة** إلى كتب الفقهاء كابن داوود وابن مالك والسيوطي، والله أعلم. تظل دائمًا مملوءة وكأن لا أحد يتناول ما بها خوفًا من أن يقال عنه إن به عجزًا جنسيًّا أو فكريًّا، ومع ذلك يتم تغييرها مرتين كل يوم، ويلقى بما عليها في كل مرة بسلة مهملات خاصة بفضلات المعز، فالمعز لا نفايات منزلية له، هو النظافة والصفاء كله، تُبدّلُ الصحون الخزفية الجميلة بأخرى ذات رسومات مختلفة وجميعها تستورد من ليمج الفرنسية بكميات كبيرة مرتين في السنة، وهي المدينة الشهيرة بصناعة السيراميك العالي الجودة، سيراميك الملوك والأمراء ونجوم السينما والغناء.

مرات تساءلت بيني وبين نفسي وأنا في حضرة المعز مولاي قزمان أبو نسوان: هل صاحب الرياسة يفضل أكل لحم

الغزال عن لحم الأنعام والطيور والأسماك؟ فأصدقاؤه الأعزاء من أمراء الخليج يعشقون صيد الغزال ويجيئون لأجل هذه الرغبة الجامحة حتى صحرائنا الواسعة لتحقيقها. المرة الأولى والوحيدة التي أمر فيها مولانا بفتح الحدود البرية بين بلادنا وبلاد جارنا سلطان الغرب، كانت بغرض تسهيل مرور قافلة تابعة لأمراء الخليج مشكلة من سيارات رباعية الدفع، مجهزة في لندن لصيد الحبارى الإفريقي النادر والغزلان في صحرائنا الكبيرة.

لقد أهداهم غزلان الصحراء الجزائرية الجميلة لأنهم احتضنوه حين كان يعبر صحراء بلا غزلان! أهداهم صحراء بغزلان حين أنقذوه من صحراء الرعب والوحدة والمتابعة القانونية.

هو كرم صاحب الرياسة لأصدقائه، وتلك من خصال الرجال الأوفياء. أما المنظمات الدولية التي تدعي الدفاع عن حقوق الحيوانات النادرة وغير النادرة المعرضة للانقراض كما تدعيه، فهي لا تتوقف عن الكلام اللامسؤول وتثرثر كالعجائز في هذه الأمور السخيفة كثيرًا. لغط سياسي الغرض منه تعكير خاطر صاحب الرياسة والكياسة مولاي قزمان أبو نسوان. الصيد هو عادة الأجداد النشامى، عادة الفرسان، ونحن أهل الكرم والفروسية التي أوصانا بممارستها الرسول

الأعظم، ومدحها الأمير عبد القادر بن محيي الدين مؤسس الدولة الوطنية.

كلما دخلت على المعز صاحب الرياسة في مكتبه وجدت الطاولة المقابلة عليها تلك الصحون الصغيرة من السيراميك نفسها، بلوزها وفستقها وجوزها وبندقها، أفكر في قريتي جنان طيطمة وفي لباسي الفاسي أو الاسطنبولي العريق وفي جبل سابوز وفي ضريح الولي الذي يرقد على قمته.

رئيس الحُجّاب الحاج مولاي بوعزة الذي قضى عشرين سنة في خدمة مولاي قزمان أبو نسوان ولم يره إلا أربع مرات على المباشر، كان ذلك عشية كل دورة انتخابية لتجديد الولاية، انتخابات ديمقراطية نزيهة وشفافة! يميِّز صوت مولاي قزمان أبو نسوان من خلال ذبذبات صوته المبحوح عبر الهاتف فقط، صوت صاحب الرياسة به خشخشة رومانسية، همس كنداء جبرائيل للنبي، كل ما بينهما من خطاب يمر عبر الهاتف، يتفاخر الحاج مولاي معزوز بين ذويه وجيرانه بأنه يلتقي صاحب الرياسة صباحًا ومساء، وأنه يشرب معه قهوة العصر حين لا يكون لديه ضيف ما، وأنه في كل مرة يطلب منه أن يبلغ أفراد أسرته السلام، وأنه يعرفهم واحدًا واحدًا بأسمائهم، حتى وإن كان لم يزرهم في هذه الفيلة التي

اشتراها بالدينار الرمزي من أملاك الدولة، وقد كانت إقامة صيفية للحاكم العسكّري الفرنسي أيام الاستعمار.

أنا عمار النساخ الثاني، وفيّ للأجداد وطائع صاحب الرياسة والأمجاد، جاء بي مولاي قزمان أبو نسوان إلى هذا القصر؛ لأنه يعلم مدى قدرتي على سبك جواهر الخطب، أخرج لآلئ الكلام من صخر اللغة، يعرف فصاحتي وأيضًا يعرف ولعي بالقواميس وبشعراء الفصحى والعامية؛ وقد استقبلني ثلاث مرات بعد نجاحه الكاسح في الانتخابات الرئاسية في العهدة الثانية والثالثة والرابعة، كان مبتهجًا، في صحته العقلية والجسدية، وطلب مني أن أقرأ له بعض قصائد الملحون التي كان يحب الاستماع إليها. الحاكم مولاي قزمان أبو نسوان ذواقة فن وويسكي مع أنه لا يحب المثقفين، بل يكرههم ويتفادى لقاءهم، أنا أتفق مع رأيه هذا فكلام المثقفين ثقيل وبدون ملح.

بي غيرة على صاحب الرياسة والكياسة؛ أريده لي وحدي لا يشاركني فيه هؤلاء المستشارون الذين يفوق عددهم المائة، جوقة الضرائر، يحدث أن أغضب بين الحين والآخر حين يكلف رئيس الحجاب أحد المستشارين بالقيام بعمل ما لصاحب الرياسة والكياسة، كأن يطلب معلومة ما عن بلد أو شخصية أو قضية من أحد غيري يكون قد طلبها مولاي

قزمـان أبـو نسـوان. أنسـحب إلـى بيتـي، ألـبس الجلبـاب التلمساني، والبلغة الفاسية الصفراء، والقبعة العثمانية الحمراء، والجوارب التونسية البيضـاء، وأجلس آنـاء الليل والنهـار أقرأ القـرآن الكـريم والشـعر الشعبـي وأدخـن الحشـيش الكتـامي، وأستمع إلى صوت فازية كنوز على القناة الإذاعية الثالثة.

"الغيرة تشطح أميرة وترد العجوز صغيرة". المستشـارون فـي ديوان القلم والإنشـاء لمولاي قزمـان أبـو نسـوان يشبهون الزوجـات اللواتي تشتركن في رجل واحد، فـي عز أيام الغيرة التـي تنتـابني بـين الحـين والآخـر، أتوقـف عـن نتـف شـعر حواجبي وحلق لحيتي، مع أنني أمرد إلا أن من عادتي حلق وجهي يوميًّا، ينعشني تمرير شفرة الحلاقة جيلات- تـو فوق رغوة الصـابون علـى حنكـي المشـحم والمحنك قليلاً! فـي مثل هـذه الأيـام تجـدني لا أتغـذى سـوى علـى الكسكسـي الأسـود بمرق أبيض باللفت المر أو الكوسـة الصـفراء وبعض حبات زيتون وتمر وأشرب القهوة كثيرًا، وأسمع الراديو. فـي مثل هذه الأيام التي تجيئني كما الدورة الدموية للنسـاء أتذكر شكل هرم جبـل زنـدل أو عنـدل أو.. والـذي بنيـت مـدينتي عنـد سـفحه والـذي يشـبه حيوانًـا خرافيًّا فاتحًـا فمـه نحـو السـماء، حتـى إن الأمهات والجدات كن يخفن بـه الصـغار من الأولاد والأحفاد حين يأخذهم اللهو في الخـارج ويرفضون الدخول إلـى البيوت

على الرغم من سقوط الظلام على القرية. وأتذكر قِسْمي في مدرستي الأولى، مدرسة أبو العلاء المعري، الذي كانت له نافذة تطل على سوق المدينة مباشرة، حيث الناس يجيئون كل يوم ثلاثاء من كل الضواحي لبيع الدجاج والماعز واللبن والبيض والقمح والعسل والتين المجفف، كنت أراقب حركة السوق وأنسى درس التربية الدينية، ولا أنتبه إلا عند دخول معلم الفرنسية، الذي كان يهوديًّا من مدينة البليدة من عائلة بنسعيد يمتهن حرفة صناعة آلات العود خارج وقت التدريس.

ـــــــــــ ها أنا ذا

ها أنا ذا أواجه هذه الورقة البيضاء الباردة والغامضة في بياضها. لأول مرة أشعر أن الورق هو الآخر يتنفس، يعرق، يرتجف، يحتار، ويسخر منا أيضًا. سأتخذ من هذه الورقة التي خرجت من أفضل وأجود مصانع الورق البيولوجية في بريطانيا مسودة كتابة نص الاستقالة–الإقالة، هذه الورقة بحجم 27/21 هي من يقرر مصير صاحب الرياسة والكياسة مولاي المعز قزمان أبو نسوان، بعد عشرين حولاً من حياة العز والجاه والأمر والنهي، ها هي ورقة على ظهرها بعض عبارات ستحوله إلى لا شيء. في مواجهة هذه الورقة العجيبة أجهد نفسي باحثًا عن الكلمات التي لا تقول معناها فقط، بل تقول المعنى المضاد له في الوقت نفسه. أفتش في قواميس معاني الكلمات، قواميس الأضداد، وقواميس المترادفات.

أستجد بمقاييس اللغة لابن فارس، وكتاب العين للفراهيدي، واشتقاق الأسماء للأصمعي، والفرق لابن ثابت اللغوي، ورسائل الخط والقلم لابن قتيبة، والمذكر والمؤنث لسهيل التستري، والعشرات في غريب اللغة لغلام ثعلب، والمحيط في اللغة لابن عباد، وتاج اللغة وصحاح العربية للجوهري، والمحكم والمحيط الأعظم لابن سيده، والمفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، وأساس البلاغة للزمخشري، والنهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير الجزري، والمغرب في ترتيب المعرب للمطرزي، ومعجم البلدان لياقوت الحموي، والشوارد للصغاني، ومختار الصحاح للرازي، والألفاظ المختلفة في المعاني المؤتلفة لابن مالك، ولسان العرب لابن منظور، وتحفة الأريب بما في القرآن من غريب لأبي حيان الغرناطي الأندلسي، والمصباح المنير للفيومي، وكتاب التعريفات للشريف الجرجاني، والقاموس المحيط للفيروزابادي، ومعجم مقاليد العلوم للسيوطي، والتوقيف على مهمات التعاريف للمناوي، وتاج العروس لمرتضى الزبيدي... أهيم في متاهة التقلبات الستة في العربية، لم أنم الليل بطوله وعرضه، حتى إن زوجتي الثانية والتي أنتبه الآن بأنها تحمل نفس اسم الأولى لأول مرة تتجرأ فتشوش عليّ خلوتي، فقد سمعتني أهذي أُكَلِّمُ القواميس فلا ترد لأنها لا تريد أن تكون

متآمرة ضد مولاي الحاكم، أقول كلامًا قريبًا من الهلوسة أو الجنون. ومع ذلك حين رأيتها واقفة على عتبة الغرفة، قلت لها دون أن أرفع رأسي من بين هذا القاموس: "لالة زهور أريد كأس زنجبيل دافئ بالعسل الحر". لم أكن متيقنا بأن اسمها هو "زهور"، ربما "زهرة" أو "زليخا"؟

مهمة صعبة، بل تكاد تكون من باب المستحيلات، أن تكتب رسالة استقالة – إقالة باسم صاحب الرياسة والكياسة الذي قضى عشرين حولاً وبين يديه مقاليد الحكم المطلق، اليد الطولى التي لا أطول منها، وقبلها قضى ما يعادلها تقريبًا وهو يتربص بالكرسي واضعًا قدميه في رحم رمال الخليج الساخنة، يعيش بين غرف الفنادق الفاخرة والطائرات والاستقبالات في الدواوين الأميرية، والنقاشات المفتوحة مع بعض المثقفين العرب والبربر الوافدين على بلدان الخليج، الذين يشتغلون عادة في الإعلام والعمران والطب والسياحة. وكان من أقرب المقربين إليه في عزلته الخليجية السلطانية الفيلسوف الموريتاني المعارض محمد الأمين ولد أباه. كان يحلو له أن يلتقي به كل يوم خميس على مائدة غداء مشكل من غلال البحر، يبدآن حديثهما في الثقافة والتاريخ بعيدًا عن السياسة والمال، لتتشعب حول كتاب الاعترافات لجان جاك روسو والاعترافات للقديس أوغسطين وكتابات سيمون دي

بوفوار حول المرأة وملكيتها لجسدها وديغول وروايات أرسيل لوبين واغتيال المهدي بن بركة والهجوم على العراق الحضارة. يتحدثان أيضًا عن المختار ولد داده الذي صنع بلدًا حقيقيًّا فوق تلال من رمل وتلال من الشعر الحساني، وعن الشاي الموريتاني واختلافه عن الشاي المغربي، عن الهوية بالشاي، أي الهوية الشايوية!! وعن امتناع الموريتانيين عن أكل البيض وإقبالهم على أكل الجراد، وعن الملوك والرؤساء ذوي القامات القصيرة، عن نابليون بونابرت وهتلر وهولاكو ولينين ومحمد علي وستالين.

بدا عمار النساخ الثاني باش كاتبْ مولانا قزمان أبو نسوان قلقًا، فمنذ أن تسربت إليه بعض أخبار التظاهرات التي بدأت تسبب لصاحب الرياسة والكياسة حالات من الهلوسة، لا يهذي سوى باسم أمه التي دفنها منذ سبع سنوات، حمل نعشها بنفسه على كتفه المباركة، وقد ترك رحيلها فراغًا كبيرًا في نفسه. كانت لآلة الحاجة السندسية هي كل شيء بالنسبة إليه، هي والكرسي والبقية للجحيم. وبقدر انشغال الباش كاتب بمصير مولاه قزمان أبو نسوان كان أيضًا حائرًا حول مآل موهبته اللغوية الإبداعية التي ستموت بمجرد التوقف عن تدبيج الخطب والرسائل المهمة والحاسمة التي ينتظرها الشعب يوميًّا في نشرة أخبار الثامنة مساء.

أعود

أعود إلى البيت، أجد عبد الرحمن الغسّال قد مرّ، وقد أطعم القطة وغير لها الرمل الذي تقضي فيه حاجتها، تستقبلني سانت مونيكا بغضب إذ تأخرت، وكأنما كانت عيناها على عقارب الساعة منذ أن سقط الليل على الشباك، أحملها بين ذراعيّ تتمنع وهي راغبة في مداعباتي على فروها الناعم.

أغير لها الماء من جديد مع أن عبد الرحمن قد قام بذلك قبل ساعتين أو أقل، أعود إلى الصالون أجلسها في حضني، وأبدأ في حفظ كلمات قصيدة الدا المولود الجديدة. ترتاح لصوتي فلا ترفع عينيه عن ملامح وجهي.

ننتقل إلى المطبخ، أحضر كالعادة شريحة لحم أبيض، مع حبة طماطم، أفتح قنينة نبيذ، ثم أراقب لون عينيها الذي يتغير من أزرق إلى أخضر.

عند منتصف الليل بالضبط، الثانية عشرة ليلا، حيث عقارب الساعة الجداريّة الثلاثة تتعانق فوق الرقم 12، تتحول سانت مونيكا إلى امرأة جميلة، بثوب شفاف طويل فوق جسد ناعم، تعود إلى أصلها، تشرب معي كأسا، ثم نتسلل إلى السرير كي ننام الواحد في حضن الآخر، تحكي لي حلم ليلتها السابقة وكيف أنها ضيعت أهلها فوجدت نفسها ضائعة فوق سطح العمارة تغازل رجلا غريبا في مطبخه.

في الصباح حين أستيقظ أجد سانت مونيكا قد عادت إلى فروها قطة كما قبل منتصف الليل، وأنتظر كي تحكي لي حلمها في سريرنا هذه الليلة.

______ أنا

أنا عمار النساخ الثاني، حفيد عمار النساخ الأول مؤسس مدينة جنان طيطمة، أنا ابن جده، أبي حجرت عليه جدتي حتى مات مقفلا عليه في غرفة بدون نوافذ. كلما عبرت الرواق الذي يوصلني إلى مكتب صاحب الرياسة والكياسة مولاي قزمان أبو نسوان أشعر بشيء غريب جدًّا، حدث معي هذا عدة مرات خلال العشرين سنة الماضية، وبالضبط منذ أن أنهيت قراءة كتاب "بغية الرواد في أخبار بني عبد الواد وأيام أبي حمو الشامخة الأطواد" ليحيى بن خلدون، من يومها لم أسعد بنوم عميق ولم أشعر بدف وسادة أو بحلم ناعم يدغدغ ليلي. كلما استعدت تفاصيل قصة نهاية يحيى بن خلدون كاتب السلطان أبي حمو والتي فصَّلَها محققُ الكتاب في المقدمة، لا أذكر اسم المحقق، ويحيى بن

خلدون هذا هو الأخ الأصغر لعبد الرحمن بن خلدون صاحب المقدمة التي شرع فيّ كتابتها بمغارة تاوغزورت بضواحي تيهرت، والذي فاوض تيمورلنك وهو على أبواب دمشق، ترتعش فرائصي ويصيب ركبتي الفشل كلما خطوت فوق السجاد الفارسي الذي يغطي الرواق الذي يوصل حتى باب مكتب مولاي قزمان أبو نسوان. أحاول أن أنسى وأطرد تفاصيل قصة اغتيال يحيى بن خلدون المرعبة، كي لا أدخل مكتب صاحب الرياسة والكياسة وأنا في حالة من الذعر، أنا الذي يحرص وبحزم على ألا أعكر أجواء هذا اللقاء الذي أحظى به من قبل مولاي قزمان أبو نسوان. قبل أن أذهب إلى مقابلته أقف أمام المرآة لمدة ثلاث دقائق، أبدأ في تمرينات ملامح وجهي على رسم الابتسامات العريضة التي تعكس الرضا والاطمئنان، وعلى حركة الرأس التي تعرب عن الطاعة والقبول والتنفيذ، وأعمل جيدًا على دَوْزَنَة حبالي الصوتية كي لا تكون النغمة مزعجة أو نافرة خاصة في ساعات الصباح، قبل الحادية عشرة، إذ أتناول ملعقة عسل حر جُلبت لي خصيصًا من منحلة توجد على رأس جبل سابوز غير بعيد من ضريح الولي سيدي معتوق. بمجرد أن أواجه مولاي قزمان أبو نسوان خلف مكتبه أنسى صورة ابن تاشفين ويحيى بن خلدون، وأستعد للاستماع إلى سلطاني أنا

لا إلى سلطان يحيى بن خلدون. فرق بين هذا الذي أمامي وذاك الأبو حمو الثاني الذي لُمِّعَتْ صورته كثيرًا في كتاب البغية. أدقق النظر في عيني مولاي فأجده يشبه قليلاً أبا حمو الثاني، وأتذكر أن أصلهما يعود إلى مدينة واحدة، على الرغم من محاولتي العنيدة في مطاردة صورة أبي حمو الثاني وابنه القتّال ابن تاشفين وأنا في حضرة رئيسي إلا أن قوتي تخونني فأُهزَم. وبمجرد مغادرتي مكتب صاحب الرياسة والكياسة، وما أن أضع قدمي على السجاد الفارسي ذي اللون الأحمر الغزالي عائدًا إلى مكتبي، حتى ترتسم صورة يحيى بن خلدون ثانية خارجًا من مكتب سلطانه أبي حمو الثاني. أسرع الخطى على السجاد وكأن أحدهم يلاحقني في الرواق، ويريد أن يقبض على رقبتي ليُمِتْني خنقًا كما حدث مع يحيى بن خلدون باشْ كاتبْ السلطان أبي حمو الثاني. أريد أن أستنجد بأحدهم فلا أجد أحدًا. كل المكاتب مغلقة، ولا يسمع سوى صوت سحب طراد الماء في المرحاض. أصل مكتبي أغلق الباب وأتحسس رقبتي لأجدها سالمة في مكانها، ثم أفتح كتاب يحيى بن خلدون "بغية الرواد في أخبار بني عبد الواد وأيام أبي حمو الشامخة الأطواد"، فأقرأ منه قليلاً عن بساتين تلمسان وعن قصورها وعن انتصارات بني عبد الواد. أشعر بسعادة لأنه لم يذكر هزائمهم، ولم يكتب الغوغاء كهذه

التي بدأت تملأ شوارع إيكوزيوم وتقترب شيئًا فشيئًا من قصر الرياسة العامر بالحيّ المولوي.

أحاول أن أنسى تفاصيل الصورة الدموية الفظيعة لاغتيال يحيى بن خلدون مخنوقًا في رواق قصر السلطان من قبل الأمير بن تاشفين الثاني ابن أبي حمو الثاني، وأقول الحمد لله، إن مولاي قزمان أبو نسوان لا ابن له، لكني أتراجع إذ أستعيد بعض سلوك أخيه الأصغر الذي يتصرف كالابن الوريث فأجده يثير خوفي، يمسك بكل شيء، بالمال والسياسة والسلاح. لقد وضع يده على ديوان القلم والإنشاء والتليفزيون، حتى على بحور قصائد شعراء اتحاد الكتاب في مسابقة جائزة مدح الجامع الأعظم، إنه يذكرني بابن تاشفين الثاني. إن مولاي قزمان أبو نسوان يعامله كما يعامل ابنًا لم يلده. مرات كثيرة فكرتُ أن أقترح على صاحب الرياسة والكياسة مولاي قزمان أبو نسوان أن يتزوج؛ لأن من شروط الإمامة السياسية والدينية عند المسلمين أن يكون الإمام متزوجًا إذا ما أدرك سن البلوغ، لكني تراجعت، هذه أمور ليست من اختصاصي، أنا الباشْ كاتبْ صنعت للرسائل والخطب، فقط.

عفوك يا رب، أنا مسلم سني مالكي لا أومن بفكرة تناسخ الأرواح، ومع ذلك يا ربي أشعر أن يحيى بن خلدون موجود فيّ، هو أنا، وأنا هو. لقد نُسِخ فيّ، لقد عاد يحيى مجسدًا في

شخصي، لا فرق بين يحيى وعمّار النسّاخ، مثلي كان يشغل منصب باشْ كاتبْ السلطان، مثلي كان سيد الديوان السلطاني للقلم والإنشاء، مثلي كان له عدد من الخصوم الذين تحركهم الغيرة من المستشارين والوزراء والسفراء والكتاب والشعراء والمؤرخين والفقهاء. أنا أيضًا أشعر أن جيشًا من العيون تراقبني، تلتهمني، تغبطني على حب صاحب الرياسة والكياسة لي وتفضيله لي على الآخرين. الجميع يكرهني لأنني مُدلله الأول من بين كل هؤلاء المستشارين والوزراء والسفراء... الجميع يكيد لي كيدًا.

مرات حين يرهقني التفكير في قصة نهاية يحيى بن خلدون المرعبة أتمدد على ظهري، أحدق في سقف غرفة النوم وأقول: يا ليتني لم أقرأ تفاصيل هذه الحادثة الفجائعية، فقد ازداد ضغطها عليّ خاصة في مثل هذه الأيام، حيث هتافات المتظاهرين تصل حتى مكتبي، مع أني أغلق زجاج النافذ المزدوج والمضاد للصوت بإحكام، ومع ذلك الهتافات الحاملة شعارات نابية تصل، فأشعر في كل لحظة وكأن أحدهم يتبعني يلاحقني، يبحث عن عنقي كي يلوي رقبتي.

سأكتب الرسالة الأخيرة، رسالة الاستقالة – الإقالة بكل ما فيّ من طاعة أسلوبية ووفاء لغوي لصاحب الرياسة والكياسة أبي حمو الثاني، عفوًا رئيسي أنا لا رئيس يحيى بن خلدون،

رسالة استقالة – إقالة مولاي قزمان أبو نسوان المعظم، ثم بعد الانتهاء من تحريرها، وبكل جرأة سأقف على السجاد الفارسي في الرواق الرئاسي أنتظر قاتلي ابن تاشفين الثاني.

اغتيل يحيى بن خلدون كاتب صاحب الرياسة في شهر رمضان. الأمراء والسلاطين يفضلون قتل أعدائهم في شهر رمضان المبارك حتى يزداد إيمانهم بالله، وها نحن على بعد بضعة أيام من هذا الشهر الفضيل الذي تكثر فيه الصلوات والدعوات وأسفار العمرة والاغتيالات السياسية. ألم يغتل المسرحي عبد القادر علولة في شهر رمضان؟ ولكن هناك فرق كبير بيني وبين هذا العلولة، هو شيوعي يتناول صحن الكسكسي مسقيا بالنبيذ، وأنا مسلم مالكي أسقي الكسكسي باللبن. وعلولة لم يغتل في القصر، اغتيل في الشارع، في حي شعبي، أما أنا فمن يتربص بي سيخرج من واحد من هذه المكاتب المغلقة بهذا القصر السلطاني الصامت، وسيكون معينًا بظهير رئاسي مثلي، سيكون مستشارًا يعيش معي في هذا القصر كما تعيش الضرة مع الضرة تراقب الواحدة ليلة الأخرى مع زوجهما، وتحسب هل الليلة من الليالي الشتوية الطوال أم من الصيفية القصار؟

بعد كتابة رسالة الإقالة – الاستقالة سأقول: "لم يبق للباشْ كاتبْ ما يكتبه وما يقوله". هذه العبارة وهي تخرج من

رأسي شب حريق في خلايا دمي. تعذبني، تؤذيني، تجرح أعماقي، أشعر برجفة غريبة، بما يشبه الحمى، لا القهوة ولا سجائر الحشيش استطاعت أن تخفف عني أزمتي.

ـــــــــ على

على مكتبـي فـي ديوان القلم والإنشـاء، ومنذ اليوم الأول، وضـعت أمـامي رزنامـة مفصـلـة مسـجل عليها وبدقـة تـواريخ الأعيـاد الوطنيـة لجميـع الـدول المغاربيـة والعربيـة والأوروبيـة والأمريكيـة والآسيوية والأفريقيـة، مرتبـة ترتيبًـا كرونولوجيًّا، ثـم أبجديًّا ثم جغرافيًّا ثـم دينيًّـا، مـع ملاحظـة سـجلتها أمـام تـاريخ كل مناسبة مهمة في بلد ما أعبر فيها عن درجة العلاقة بين بلدنا وهذا البلد، وكذا طبيعة ودرجة العلاقة الشخصية ما بين مولاي قزمان أبو نسوان وملك أو رئيس تلك الدولة. كل شـيء مرتب بدقة على مكتبـي. أحمل معي هذه الرزنامـة فـي جميع الرحلات التـي يقوم بها صـاحب الرياسـة والكياسـة والتـي كنت ألازمـه فـي العديد منها، وقد كانت كثيرة فـي عهدتيـه الأولـى والثانيـة، حتـى إننـي كنت مطالبًا أن أبعـث ببرقيات التحيـات

لكل رئيس دولة بمجرد أن تدخل الطائرة الرئاسية الميمونة أجواء هذا البلد أو ذاك.

أنا الباشْ كاتبْ، أحرر في الأرض وفي السماء!

وفي كل يوم عليّ أن أحرر رسالة أو رسالتين باسم مولاي قزمان أبو نسوان المبجل، تتم قراءتها في مفتتح نشرة الأخبار الرئيسية، نشرة الثامنة وما أدراك ما نشرة الثامنة، رسائل التهاني والتعازي والمواساة إلى الملوك والسلاطين والرؤساء في جميع العالم، بعضهم يحكمون دولاً لا أعرفها ولا أدري حتى موقعها الجغرافي على الكرة الأرضية، لكني أصر أن أكون صادقًا في رسائلي إليهم بلغتها التي أستخرجها كلمة كلمة من قاموس لغة الجنة، لغة القرآن الكريم.

لغة الجنة لا تكذب حتى لو كنتُ أنا الكذاب بالمطلق!

كنتُ كلما كتبتُ رسالة أعيد قراءتها ثلاث مرات بصوت مرتفع، وأسأل نفسي ذلك السؤال الذي لطالما طرحه علينا أساتذة اللغة العربية في أطوار التعليم المتوسط والثانوي في فروض "شرح النص": "هل عاطفة النص جياشة وصادقة؟"، لكم كانت تعجبني كلمة "جياشة"، ولا زلت حتى اليوم أستعملها في رسائلي التهاني والتعازي، إنها كلمة عظيمة.

وحتى لا أسقط في تكرار نصوص البرقيات والرسائل الكثيرة واليومية التي أحررها أمام تشابه أغراض كتابتها،

كالاحتفال بالأعياد الوطنية أو الأعياد الدينية أو التعازي في فقدان شخصية وطنية كبيرة، كان عليّ أن أتعب باستمرار في تجديد لغتي. المهمة ليس بالسهلة، أبحث عن أكثر المفردات قدمًا، أبحث عن النشاز والمهجور والنادر، وبكثير من الافتخار أعيد إحياء بعض المفردات التي لم يعد أحد يستعملها على وجه البسيطة، كالكلمات التالية التي كنت أزرعها في رسائلي، فتثير لدى مولاي قزمان أبو نسوان بعض الفضول الممزوج بالإعجاب فيبتسم فأفرح: الشنشنة والعجعجة والطمطمانية والوكم والوتم والوهم والاستنطاء، تكأكأ، رخاخ العيش بدلاً من رغد العيش، نقاخ الماء بدلا من الماء العذب، يوم عصبصب بدلاً من يوم شديد الحر، اللازور، الأكتع (مقطوع اليد)، الأحوص (من كانت عينه أكبر الأخرى)، الأدعج (واسع العينين السوداوين)، الجعسوس (اللئيم)، البزاز (بائع الحرير)، الثكول (التي ثكلت ابنها)، الرفادة (خدمة الحجاج) وأنصبه المرض، أبحث في الهروب من مستبشع الكلمات ومستقبحها.

في المساء أجلس قبالة جهاز التليفزيون أتابع القناة الوطنية، أنتظر موعد نشرة أخبار الثامنة، وأشعر بالسعادة حين ألاحظ أن مذيعة الأخبار التي يتم اختيارها لفصاحتها وصحيح لغتها نحوًا وصرفًا ولجمال نطقها من بين عشرات

الصحفيات والصحفيين، ألاحظ عجزها في نطق كلمة لم يسبق لها أن قرأتها في حياتها. أمام هذا الموقف كنت أتلذذ، أنتشي، أشعر ببهجة غامرة.

منذ أن سكتَ مولاي قزمان أبو نسوان بعد أن أصيب بسكتة دماغية ماكرة ولم يعد باستطاعته النطق، كثرت رسائلي باسمه، فتوالت معاقبة المذيعات والمذيعين على عدم قراءة رسائل الحاكم بأمره بشكل صحيح وذلك بخصم أيام من رواتبهم، حين أعلم ذلك أهاتف المدير العام وأطلب منه التراجع عن قرار الخصم من الراتب، فيلبي طلبي على الفور وهو يقول بالفرنسية:

«Pour la lecture des messages de son excellence Monsieur Président Qazouane Abu Nissouane on choisit les meilleurs de nos présentateurs et présentatrices, en maîtrise de la langue arabe, en visibilité physique et en présence esthétique!»

حين يستفسر أحدهم، يحدث هذا خاصة من قبل بعض الفضوليين من ضرائري المستشارين الذين تأكلهم الغيرة، عن معنى كلمة مهجورة أعدتُ إحياءها في خطاب نشرة أخبار البارحة، في الرسالة الموجهة إلى سلطان بروناي حسن البلقية أغنى سلطان لدولة إسلامية، آخذ كامل وقتي في شرحها له بالتفصيل وبالأمثلة والشواهد القرآنية والشعرية الجاهلية

والأموية والعباسية، جذرها ومصدرها ومعناها الأول والثاني والثالث، وأسرد عليه أيضًا ما جاء لأجلها في القواميس من المحيط ولسان العرب.

أنتشي وقد بُهِتَ الذي ينافسني!

أكون أسعد خلق الله على وجه البسيطة حين ينزل خبر موت شخصية ما على ديوان القلم والإنشاء، من المجاهدين المعروفين أو من الموسيقيين المتميزين عالميًّا أو على الأقل عربيًّا، خاصة إذا ما كانت هذه الشخصية قريبة من مولاي قزمان أبو نسوان بشكل من الأشكال. أفرك يديّ فرحًا وأسرع لتدبيج رسالة تكون بردًا وسلامًا على قلب صاحب الرياسة والكياسة، أعمل على أن يشعر مُتَلَقِّي الرسالة السلطانية من ذوي الفقيد أن مولاي قزمان أبو نسوان قد تأثر لهذا الفَقْد الجلل كبير التأثر، قد يفوق ما يشعر به أقاربه المقربون.

وكنت أفرح ضعف ذلك حين يموت أحد خصوم مولاي قزمان أبو نسوان التاريخيين، من أولئك الذين كانوا السبب المباشر أو غير المباشر في هجرته القسرية إلى رمل الخليج، ليقضي هناك قرابة عشرين سنة وهو الذي كان منتظرًا توليه زمام أمور البلاد بعد موت صاحبه الأول، ولأن واجب العزاء ضروري، أكتب الرسالة إلى أهله وكأني أقول لهم: ما كان على الفقيد أن يكون خصمًا لصاحب الرياسة والكياسة، فها هو

قد رحل، أَمَا كان حريا به أن يكون مواليًا له في الوقت المناسب؟ كنت واثقًا بأن الحاكم كان يفهم المغزى من رسائل العزاء الموجهة إلى عائلات خصومه القدامى، كان يدرك أنني أكتب ما في قلبه، ما يخفق به قلبه، هي رسالة ما بين التشفي والتعزية، مثل هذه الرسائل لا يدبجها إلا من هم بمستوى عبقريتي، وهؤلاء لا وجود لهم في حَرَمْلَكْ المستشارين.

كنت أسعد خلق الله أيضًا حين يصلني خبر رحيل شخصية سياسية عربية أو مغاربية أو دولية، شخصية لم تكن على خلاف بينها وبين مولاي قزمان أبو نسوان، فأسرع إلى أوراقي وأستعيد بعض ذكرياتهما، فأضمنها رسالة العزاء، وكان الرئيس يبتسم وهو يقرأ رسالة العزاء ويعلق: "يا باشْ كاتبْ عمّار كأنك كنت معنا". وأفرح لتعليقه المبارك ولذكر اسمي على لسانه البيِّن!

كلما كثرت مآسي الناس من حولي وتعددت أخبار الموت وأسماء الموتى تغمرني السعادة، تغطيني الغبطة بأجنحتها الخفيفة الشفافة، أستمع للإذاعات الدولية أبحث عن أخبار الموتى في كل مكان وعيني على رزنامة الأعياد الوطنية العالمية حتى لا تفوتني فائتة، أقرأ الجرائد الأجنبية وأنقب في سجل الموتى، يحدث أن أستعيد ذكرى تاريخ موت بعض العظماء فأذكر بالدروس والعبر التي نستخلصها من

حياتهم العامرة بالبطولات والانتصارات والتضحيات كل ذلك في رسالة توجه إلىّ الخلف من السياسيين الجدد، وهو ما يُسعد مولاي قزمان أبو نسوان.

العظماء من الموتى لا يثيرون غيرة مولاي قزمان أبو نسوان.

هذا هو ضميري المهني الحي والمتوقد دائمًا، وقد قَلَّ في أيامنا هذه أصحاب الضمائر الحية، وصاحب الرياسة والكياسة يدرك ذلك جيدًا.

تعجبني كتابة رسائل التهاني بمناسبة الأعياد الدينية الإسلامية، أكون سعيدًا حين يحل علينا عيد كعيد الفطر السعيد أو عيد الأضحى المبارك أو حتى عاشورا أو المولد النبوي، فأستخرج كل الكلمات والتعابير والتراكيب الدينية التي فيها عطر البخور النادر، أطلقها فتجنح فيها الملائكة البيض، فعلى لسان مولاي قزمان أبو نسوان أغدق على أبناء هذا الشعب المؤمن المطيع أجمل الكلام متمنيًا لهم قضاء عيد ميمون، وأن ينزل الله تلابيب رحمته على موتى المسلمين وأطلب لهم الرضا والغفران من الله والشفاعة من رسوله العظيم.

مع ذلك تزعجني أصوات المتظاهرين في الشارع، وأتمنى أن تنزل الدبابات فتمشي فوقهم حتى لا يزعجوا عسل قيلولة مولاي قزمان أبو نسوان.

أما قال الغزالي في المنخول (454): "فاسترسل مالك رضي الله عنه على المصالح حتى رأى قتل ثلث الأمة لاستصلاح ثلثيها".

ـــــــ يوم

يوم أصيب صاحب الرياسة والكياسة مولاي قزمان أبو نسوان بالسكتة الدماغية بكيت ثلاثة أيام متتالية، دموعي كانت بلون حبري الأزرق والأسود. هي ضربة عين شيطانية، لم أذق لحم طير ولا لحم غنم ولم أشرب زنجبيلاً بالعسل. كنت أنام جالسًا مقرفصًا أتابع الأخبار على القنوات التلفزيونية الفرنسية خاصة، وفي الوقت نفسه أذني على المحطات الإذاعية أنتقل من محطة إلى أخرى على رأس كل نصف ساعة، أسمع نشرات الأخبار المفصلة والموجزة باللغات الفرنسية والإسبانية والإنجليزية والعربية، ولأول مرة فتحت على إذاعة إسرائيلية بالعبرية. قلت: الأخبار الصحيحة عنا تأتي من هذه الإذاعة. شعرت بإحساس غريب وأنا أستعيد قليلاً لغتي العبرية التي أتقنها ولكني لا أصرح بذلك

أمام المستشارين، فقد ينصبون لي ويتهمونني بالعمالة وبالدعوة للتطبيع مع إسرائيل، خاصة أنني كنت معية مولاي قزمان أبو نسوان حين صافح وبمحبة حاكم إسرائيل على هامش جنازة سلطان الغرب وأنني كنت مترجمه الفوري في تلك اللحظات من ذلك اللقاء الذي أثار كثيرا من الضجيج من قبل أعداء البلد.

في سرية وعلى عجل نقل مولاي قزمان أبو نسوان إلى المستشفى العسكري ببلاد الروم. على الرغم من أنني أكره الروم والنصارى لكنني قلت: المهم أن يرجع سالما، وألا يكون مصيره كمصير غالبية المسؤولين الكبار من والوزراء والسفراء والعقداء، يحكمون شعب هذا البلد مستندين على خطاب عدائي ضد الروم ويموتون في مستشفياته، ليعودوا في توابيت من خشب ملفوفة بالعلم الوطني.

أبعدت عن رأسي فكرة الموت، فمولاي خلق للحياة والسلطنة لا للموت وعتمة القبر وأهواله.

بعناية فائقة، صُغْت برقية قصيرة جدًّا وغامضة جدًّا كما تقتضيه الظروف عن نقله إلى مستشفى ببلاد الروم وأُرْسِلتْ إلى وكالة الأنباء الرسمية. على الفور أخذت دفتر يومياتي وغادرت ديوان القلم والإنشاء وعدت إلى بيتي. تركت المكتب بما فيه من قواميس وموسوعات في اللغة والتاريخ والحضارة.

أحب رائحة الموكيت التي فيها أثر الغَرَاء الممزوجة بأريج قهوة الصباح من يدي السكرتيرة التي أنسى اسمها باستمرار، فتارة أناديها بهند على اسم أمي، وطورًا أناديها بخولة على اسم عشيقة طرفة بن العبد أفضل شعراء الجاهلية إلى قلبي، وفي كل مرة كانت تصحح خطئي قائلة: اسمي صونيا، صونيا محسوب يا "أستاذ" عمّار. تعجبني كلمة "أستاذ" في فمها، تنطقها بشكل مثير بين الرومانسية والغنج والتحرش الجنسي، نطقٌ فيه إيقاع صوت أنثوي من بجاية أو تلمسان أو فاس. أنظر إليها وكأني أكتشف امرأة لأول مرة أمامي في هذا المكتب المتواضع، وفي اليوم التالي أنسى اسمها وأناديها بهند أو خولة، وتصحح خطئي مبتسمة وترن في أذني كلمة "أستاذ" بكل جنسويتها. أدركت في الأخير أنني كنت أقوم بذلك قصدًا حتى تنطق كلمة "أستاذ" وتبتسم لي، فابتسامتها شعلة من أمل في ظلمة هذا الرواق الذي قتل فيه يحيى بن خلدون وابن عمار وعبد الحميد الكاتب!

كنت أتابع الحالة الصحية لمولاي قزمان أبو نسوان وهو يعالج في الخارج، والخارج عندنا هو عاصمة بلاد الروم دائمًا، والداخل عندنا هو عاصمة بلاد الروم دائمًا، هي المنفى وهي البيت، هي العدو وهي الصديق، هي العسل وهي الحصرم. ولم أتوقف عن مواصلة كتابة برقيات التهاني

والتعازي باسم مولاي قزمان أبو نسوان وإرسالها إلى أطراف العالم، كأن شيئًا لم يحصل، وهو في غيبوبة السكتة الدماغية. أعلم أن كل ما يذاع في القنوات التلفزيونية وعلى أمواج الإذاعات من أخبار عن تدهور صحته غير صحيحة. عليّ أن أرد عليها وبذكاء لا يملكه إلا الباش كاتب عمار النساخ، أنا، وأن إشاعات موته أو شلله الكامل أو النصفي هي مجرد أكاذيب يراد منها زعزعة استقرار البلد وإثارة البلبلة والفتن داخل الرعية الطيّعة؛ فمولاي قادر على مواجهة أشد وأقوى السكتات الدماغية، أعصاب دماغه من فولاذ، أعتقد أن هذه السكتة الدماغية هي مؤامرة ضد عقله الخارق قام بها أعداؤه في الداخل بالتنسيق مع الروم وإسرائيل.

لا أخفي عليكم، وقد سجلت هذا في دفتر يومياتي لكي تقرأه الأجيال القادمة: لقد تألمت حد البكاء، شعرت بالإهانة حين استقبل مولاي قزمان أبو نسوان أحدَ نجوم أغنية الراي في المستشفى بغرض تمرير رسالة مشفرة من خلاله إلى الشباب عن حالته الصحية المتعافية وعن معنوياته العالية. أما كان "حريًّا" بصاحب الرياسة والكياسة أن يستقبلني أنا، لأتحدث بعد خروجي من غرفته بلغة القواميس الصافية لجميع صحافة العالم من الرياض إلى دبي مرورًا بموسكو وباريس وتل أبيب وصولاً إلى واشنطن؟ غضبت لذلك ولكني

سامحته، قلت في نفسي: هو أعلم مني بأمور البلد حتى وهو بـ "دماغ" ساكت!

عاد مولاي قزمان أبو نسوان إلى البلد بعد مدة طويلة من العلاج. لحظة نزول طائرته في حمد الله ورعايته بالمطار العسكري وخروجه منها على كرسي متحرك، كنت جالسًا أمام جهاز التليفزيون الذي نقل على المباشر صور وصوله. بمجرد أن شاهدت الصورة، انفجرت باكيًا كطفل ضاعت منه يد أم حنون في الزحام فضاعت به السبل جميعها. شهقت حتى إن زوجتي هرعت إليّ وقد أخافها انهياري المفاجئ أمام منظر مولاي صاحب الرياسة وهو على الكرسي المتحرك، ولم تجد ما تفعله سوى أنها أخذتني بين ذراعيها وبكت معي هي الأخرى، وهو ما أيقظني وأعادني إلى طبيعتي. لا أريد أن أكون ضعيفًا إلا أمام مولاي وصاحب نعمتي قزمان أبو نسوان. في اليوم التالي قررت العودة إلى مكتبي بديوان القلم والإنشاء، ولأول مرة لم أشتم رائحة غراء الموكيت مخلوطة بأريج قهوة سكرتيرتي خولة أو هند أو راضية أو... لقد طلبت هذه الأخيرة إجازة طويلة بدون راتب، حزنت لذهابها، وهاتفتها على الفور أطلب منها العودة إلى العمل، لكنها قفلت في وجهي الهاتف قائلة: أنا لست خولة يا "أستاذ"، أنا صونيا محسوب، وهذه المرة لم تكن كلمة "أستاذ" رومانسية كما كنت

أسمعها منها كل يوم وعلى مدى السنوات. قلت في نفسي ربما كلمتها في اللحظة التي كانت فيها بين ذراعي روبيبيسيبير؟ وشعرت بالقلق وحركتني الغيرة.

لم ______

لم يعد صاحب الرياسة مولاي قزمان أبو نسوان قادرًا على الكلام، وما عاد بإمكانه النطق بشكل طبيعي وصحيح ومفروز. لقد فقد التحكم في حباله الصوتية بشكل كلي تقريبًا، ومع ذلك وأمام هذه المأساة الوطنية شعرت بفرح كبير، شعرت بنشوة، نشوة تقاسم السلطة بيني وبين صاحب الرياسة، بغبطة عارمة. في غياب الكلام من على لسانه أنا لسانه، حباله الصوتية من حروف كلماتي المنتقاة بعناية فائقة. الخطب والرسائل المكتوبة هي البديل، هي لسانه لشعبه وللعالم، من له باشْ كاتبْ مثلي لا يحتاج إلى لسان لمخاطبة العامة؟ لقد أصبحت بقلمي هذا بديلاً عن مولاي أعزه الله أو أكاد. هذا ليس انقلابًا ولا شراكة في السلطة. إنه دوري التاريخي الذي أؤديه بكل أمانة وطاعة وتفان، أنظر

إلى صورته في الإطار فوق رأسي تمامًا، وأتذكره وهو الذي لم يكن ليَسْكُتَ يومًا، خطبة بعد خطبة، حتى إن أعداءه والغيورين منه نشروا في الناس نكتة ساخرة عن كثرة خطبه في التليفزيون إذ قالوا: "إن الحاكم اتخذ من التليفزيون سكنًا، فهو قائم فيه من الصباح إلى المساء، حتى إن أحد مستشاريه قال له وهو على المباشر في خطبة طويلة: مولاي قزمان أبو نسوان، لقد حان وقت صلاة العشاء، وعادة التليفزيون أن يقطع برامجه لرفع الأذان، فرد عليه قزمان أبو نسوان: أنا مستعد لرفع الأذان وقراءة القرآن، المهم ألا أترك الشاشة لغيري".

مع تعذر إمكانية الكلام لدى مولاي واستحالة مخاطبة الشعب مباشرة، فقد أصبحتُ أنا عمار النساخ الثاني حفيد عمار النساخ الأول، أصبحت الرجل الأول، صاحب الحل والربط، أكبر من رئيس الحكومة وأهم حتى من قائد بيت الحرب. ونظرًا إلى أهميتي القصوى في هرم السلطة، فقد بدأت أشعر مرة أخرى أن شخصية يحيى بن خلدون ذات المصير المرعب عادت لتسكنني، منذ أن اطلعت على المقدمة الطويلة لكتاب بغية الرواد، التي كتبها محقق المخطوط عن نهاية الباشْ كاتبْ يحيى بن خلدون وعلاقته بالسلطان أبي حمو موسى الثاني. قررت ألا أعبر الرواق

الرئاسي ولا أمشي على السجاد الفارسي للوصول إلى مكتبي أو مكتب صاحب الرياسة والكياسة، لذلك فقد بدأت أسلك سلمًا خاصًّا بعمال الصيانة وبعاملات النظافة كي أصل إلى مكتبي ولا أتوقع ذراعًا ستمسك برقبتي في الظلام لتخنقني، وتلقي بي جثة هامدة على السجاد الفارسي الأصيل يحيط بي خصومي من المستشارين وفي عيونهم ابتسامة الاقتصاص مني، ابتسامة النكاية، بعد أن سكت صاحب الرياسة عن الكلام على القلم أن يتكلم، القلم البليغ بلاغة ابن فارس والزمخشري والأصمعي، أن ينطق كل مساء في نشرة الأخبار الرئيسية، أشعر بمسؤولية كبيرة على عاتقي فأعود إلى رزنامتي العجيبة، حيث علي أن أجد يوميًّا مناسبة وطنية أو مغاربية أو عربية أو إسلامية أو حتى أمازيغية أو دولية، تاريخية أو اقتصادية أو ثقافية، الواقع أنني كنت أحاول قدر الإمكان ألا أقف عند المناسبات الثقافية كذكرى وفاة الشعراء أو الفلاسفة أو المؤرخين؛ لأن صاحب الرياسة والكياسة لا يحب المثقفين، لسانهم طويل وغالبيتهم ناكرو خير.

مع فقدان مولاي قزمان أبو نسوان القدرة على الكلام أشعر بمسؤوليتي التاريخية والسياسية مضاعفة، لذلك قررت أن أرتب لي سريرًا في مكتبي؛ إذ لا داعي للعودة ليلاً إلى البيت، فأنا الآن في حالة طوارئ قصوى، أكتب الخطب التي

تقرأ علـى الشـعب عبـر قنـاة التليفزيـون والإذاعـة، تقـرأ فيفـرح النـاس بهـا كثيـرًا؛ لأنهـا السـبيل الوحيـد للدلالـة علـى وجـود صـاحب الرعيـة فـي حيـاتهم اليوميـة، أن يسـكن أحـاديثهم. أنهض فـي منتصـف الليل أو عند مطلع الفجر لأسـجل فكرة تخطر ببالي علي تضمينها في رسالة اليوم الموالي. أحرص ولـو فـي منتصـف الليل علـى تسـجيل كلمـة لـم يسـبق لـي أن اسـتعملتها فـي رسـائل التعـازي للرؤسـاء والملـوك. أصـعب الرسائل كتابة هي رسائل العزاء، لأن قاموسـها محدود وجملها معروفة ومكرورة وكان علـي أن أبدع. الإبداع في مثل هذه الحالـة ضـرورة وطنيـة، بـل واجـب وطنـي، ولأننـي كنـت أشـعر أن هنـاك مـن يكيـدون لمـولاي قزمـان أبـو نسـوان مـن محيطـه المقرب جـدًّا كيـدًا خبيثًـا، فهـم لـم يكونـوا ينتظـرون سـوى خبـر موتـه، لـذلك فقـد اتخـذت قـرارًا شخصـيًّا دون الرجـوع إلـى المسؤول الفعلي في السلطنة، وهو المبادرة لكتابـة رسائل دون أي استشـارة خاصـة فـي حـالات العـزاء أو التهـاني الوطنيـة المرسـلة إلـى رؤسـاء وملـوك بلـدان لا يعـرف الشـعب مكانهـا علـى الخارطـة. كنـت أريـد أن يُحيّـي مـولاي صـاحب الرياسـة والكياسـة الأسرة الجزائريـة كل ليلـة مـن خـلال رسـالة أو برقيـة أو خطـاب موجـه شـرقًا أو غربًـا أو شـمالاً أو جنوبًـا لكبـار العرب والعجم والأفارقة وأسياد الأقوام الأخرى، وقد وُفِّقتُ، ها

هو مولاي يحيى حياته الطبيعية من خلال نصوص رسائلي. كنت بالمرصاد لكثير من الإشاعات التي تروج لموته، فأنا، بعد الله تبارك وتعالى، البرهان الساطع والدليل القوي على أنه على قيد الحياة. كلما خرجت إشاعة عن تدهور حالته الصحية أدبج برقية في المساء موجهة إلى رئيس أو ملك أهنئه بمناسبة عيد ميلاده، أو بمناسبة نجاته من سقطة على ظهر حصانه، أو أبحث لي عن أي مناسبة لحدث ما في بلد ما قد لا تكون لنا حتى ممثلية دبلوماسية فيه، فأبرق للرئيس أو الملك أو حتى رئيس الوزراء لأعبر له باسم صاحب الرياسة عن فائق مودته وتقديره لما يحققه هذا الحاكم الإفريقي من رخاء عيش لشعبه شقيق الشعب الجزائري. المناسبات الرياضية فرصة لكتابة أجمل الرسائل لتهنئة بلد إثر حصول فريقه على كأس العالم أو كأس أوروبا أو كأس البحر المتوسط أو كأس إفريقيا أو كأس آسيا، رسائل التهنئة الرياضية تشد إليها الشباب، الرياضة أفيون الشباب، لذا فأنا أوليها أهمية قصوى مع أنني لست رياضيًّا، ولكنها المهنة تتطلب ذلك، أنا الباشْ كاتبْ.

رسائلي وبرقياتي المكتوبة بعناية فائقة وبأسلوب قل نظيره، حيث لا شبيه له سوى أسلوب عبد الحميد الكاتب (أعرف أن لا أحد من الشعب الجزائري البسيط يعرف من هو

هذا عبد الحميد الكاتب؟) يجب ألا تختلطوا بين عبد الحميد الكاتب وبين ياسين كاتب، فالأول، أي عبد الحميد، كان مثلي رجلاً مسلمًا مطيعًا لذوي السلطان الأكبر، يؤدي دور الباش كاتب الخليفة مروان بن محمد. أما ياسين كاتب أو كاتب ياسين صاحب رواية "نجمة" وصاحب مسرحية "محمد خذ حقيبتك" فهو شيوعي لا يصلي ولا يصوم ولا يحب حاكمه بل يكرهه وينقده. هذه الرسائل والبرقيات بما تخلقه من ردود فعل وما تثيره من تعاطف لدى الشعب العزيز، وهي تقرأ من قبل مذيعة جميلة في التلفزيون وتذاع بصوت صحفي يختار لمثل هذه المناسبة، قد أحيت صاحب الرياسة والكياسة وهو رميم أو يكاد!

أنا صاحب الضمير الحي لحاكم ميت.

لكن قصة نهاية عبد الحميد الكاتب تقلقني؟

ــــــــــ أنا

أنا من ينفث الروح مشعة في مولاي قزمان أبو نسوان المعز الجالس على كرسيه المتحرك ما بين الحيرة والصمت، ملاك الروح أنا الذي يوزع الأيام، كلما حام عزرائيل حول الإقامة الرئاسية بالمنطقة المحروسة بجيشه العرمرم أجابهه بالرسائل، فيرحل شمالاً أو جنوبًا ليلتقط روحًا غير روح مولاي. اللغة العربية التي بين يدي قادرة على منح الحياة واللسان لأنها لغة الجنة ولغة القرآن ولغة التقلبات الستة. كلما كتبت كلمة في رسالة أو في خطاب أو في برقية تهنئة أو تعزية أشعر وكأنني ملاك مبعوث من السماء كي أنفخ الهواء في عجلة مثقوبة، أمنح مولاي في كل دقيقةٍ دقيقةً أخرى أو ساعة أو يومًا في الحياة وفي الحكم. رسائلي التي هي أنا، هي الطاقة الربانية التي تمدد في عمر مولاي. أستغفر الله أنا

لست بمشرك ولا بكافر مثل كاتب ياسين، فالأعمار بيد الله وهو من يمدها ومن يأخذها متى أراد وأين ما شاء، ولكني سأبقى السبب الأكبر والأبرز في هذه الحياة الثانية لمولاي قزمان أبو نسوان، من خلال هذه الرسائل التي أدبجها بلغة عربية غريبة ونادرة، فتثير آلاف النقاشات في المقاهي بين المثقفين المعربين، خاصة الذين يحبون الجدل حول الجمل ذات اللغة الفضفاضة والكلام المرصع والمزوق بالمترادفات وبغريب المفردات. كلما كتبت رسالة غريبة كثر الكلام بين العامة في المقاهي وبين المستشارين الخصوم، بين ضرائر ديوان القلم والإنشاء، إلا وشعرت أن صاحب الرياسة موجود حيًّا في النقاشات حول اللغة، نحوها وصرفها، بديعها وتوريها، وهذا الحال من السعادة الغامرة يجعلني لا أتذكر قصة نهاية يحيى بن خلدون، أنساها إلى حين، كلما كثر المهجور في لغة الرسائل التي تُقْرَأ يوميًّا على الرعية يعود مولاي إلى المركز بقوة، ومعه يعود إلى بلاد البربر ابن جني وعبد القاهر الجرجاني وابن فارس وابن منظور صفعة في وجه دعاة تعليم الأمازيغية عملاء بلاد الروم!

متعب، أتمدد على سريري المتواضع الذي رتبته في ركن المكتب بإزارين ورديي اللون. أحاول أن أنام وكلي يقظة، أنا في حالة تأهب قصوى، أنتظر أي مكالمة طارئة متأخرة أو

إذاعة خبر عبر وسائل الإعلام الأجنبية صاحبة السبق دائمًا، فصاحب الرّياسة والكياسة لا يعير أهمية للصحافة المحلية التي همها العلف من أموال "الوكالة الوطنية للإشهار"، باستثناء بعض الجرائد التي تشتغل ضد الوطن وتكن كراهية كبيرة لمولاي الحاكم بالله رافع أعلى مئذنة مسجد في العالم. لم يعط مولاي الحاكم ولا مقابلة واحدة لصحيفة جزائرية منذ عشرين سنة من حكمه الراشد، الذي أتمناه أن يطول إلى آخر الدنيا، هو يفضل الجرائد الأجنبية والفرنسية على وجه الخصوص لأنها هي التي توصل وبشكل واضح رسائله إلى العالم. أَلَمْ يكن الحاكم الذي سبقه يُدَلِّلُ مراسلَ جريدة كبيرة أجنبية في بلاده، وقد كان يصر على أن يمنحه السبق الصحفي في نشر الأخبار الأساسية حتى قبل وكالة الأنباء الرسمية، وقد أعد عنه كتابًا كاملاً؟

كلما نجحت في التخلص من كابوس تفاصيل قصة النهاية المرعبة ليحيى بن خلدون باشْ كاتبْ السلطان أبي حمو مع ابنه ابن تاشفين، أجدني محاصرًا في سريري بصورة عبد الحميد الكاتب (اغتيل عام 749) باش كاتب الخليفة مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية وهما هاربان من دمشق إلى صعيد مصر يلاحقهما قتلة دمويون. وعبد الحميد الكاتب هذا يعد ظاهرة في فن الكتابة السلطانية، منه تعلمت طريقة

كتابة رسائل التعازي والتهاني والصداقة، منه أخذت أسلوب "التحميدات" في صدر الرسائل، حتى إن رسائلي أصبحت معروفة بذلك، وقد أصبغت عليه طابعًا مغاربيًّا أندلسيًّا، وأدخلت عليه فن "الازدواج"، وهو إيراد عبارات متعددة متقاربة في المعنى ومنسجمة في الإيقاع الموسيقي.

لقد شغفت بأسلوب رسالة عبد الحميد الكاتب الموسومة بـ "رسالة الصيد" البديعة، وقد استعرت منها بعض العبارات والكلمات الدقيقة، وأنا أحيي وأحتفي باسم مولاي قزمان أبو نسوان وعلى لسانه بأصدقائه الأمراء من بلدان الخليج، القادمين بسياراتهم الرباعية الدفع إلى الصحراء في نزهة صيد الغزلان الجزائرية النادرة. قد أدهشتهم رسالتي حتى إنهم قرروا أن تحفظ هذه الرسالة في متحف الصيد عندهم الذي يسمى "متحف الصقر"، وكنت سعيدًا بذلك أيما سعادة، لا لأن رسالتي حظيت من قبل الأمراء بهذا المقام، ولكن لأنني أدخلت السعادة على قلب مولاي ومتَّنْتُ أواصر الصداقة أكثر بينه وبين أصدقائه.

وكنت أحفظ عن ظهر قلب "رسالة الشطرنج" لأنني أومن أن السياسة هي لعبة شطرنج، وأن ما أقوم به هي لعبة شطرنج خطيرة، فيها موتى في كل لحظة، وكنت مصرًّا أن يكون الفائز المنتصر هو مولاي الحاكم دائمًا. وقد كتبت نص

هذه الرسالة بخطي الأندلسي البديع ووضعتها في إطار مذهب وأهديتها إلى مولاي، وبمجرد أن قرأها علق قائلاً: "السياسة شطرنج فيها الملوك والعسكر والخطوط الأمامية والخلفية والخديعة والقنص والحذر والتربص". الواقع أن تعليقه أثار فيّ إحساسًا بالرعب، وجدت في أعماق نظرته ما يشبه نظرة ابن تاشفين للشاب كاتب يحيى بن خلدون.

هذا يحيى بن خلدون قد نغّص عليّ حياتي كلها، من السرير إلى الرواق الرئاسي بسجاده الفارسي التقليدي الغالي.

لم ______

لم يكن عمري قد جاوز الثانية عشرة، لم أكن أملك ثمن شراء قاموس لاروس الفرنسي، وقد كنت مسكونًا بهذه اللغة قبل أن أعشق جواهر العربية. استعرت نسخة القاموس من المكتبة البلدية، وهي النسخة الوحيدة المتوافرة والتي لم يكن يعود إليها سوى رجل سبعيني متقاعد من الجيش مثابر على هذا الفضاء، كان يعمل على كتابة مذكراته في حرب الهند الصينية، تلبية لرغبة حفيدته التي أحبت شابًّا فيتناميًّا وقررت الزواج منه. اشتريت دفترًا ذا الثلاثمائة والستين صفحة وشرعت في نقل القاموس كلمة كلمة، أقضي عطلة نهاية الأسبوع في النسخ، وبالفعل، وفي ظرف أقل من ثلاثة أشهر، استطعت نسخ جزء كبير منه، لم يبق منه إلا بعض الصفحات، لم يوقفني عن ذلك سوى ضعف بصري الذي كان

يتسبب في ألم حاد في الرأس، وقد حفظت عن ظهر قلب معاني جميع الكلمات التي أنقلها وحفظت مترادفاتها وأضدادها.

حين جئت إلى ديوان القلم والإنشاء برتبة باش كاتبْ مولاي قزمان أبو نسوان المعظم، وجدت الجميع يتحدث عن مستشار استثنائي قد سبقني إلى الديوان يطلق عليه اسم روبيسبيير Robespierre، مكتبه بجنب مكتبي، الحائط إلى الحائط، يقال إنه دخل القصر الرئاسي أول مرة مع أول حاكم لهذا البلد بعد طرد الغرباء المستعمرين، عرف جميع الحكّام وعمل مستشارًا لهم وكتب لهم خطبًا ورسائل سياسية وغرامية لعشيقاتهم بالفرنسية أساسا؛ لأنه لا يحسن سوى هذه اللغة. أنا أتقن ثلاث لغات هي العربية والفرنسية والإسبانية ولغة رابعة أتقنها بسرية هي العبرية أخت العربية. جميعهم أحبوه لمظهره الخارجي البورجوازي، لعزلته فهو لا يكلم أحدًا إلا نادرًا، لا يُرى إلا وأنفه في ملف أو كتاب أو صحيفة أو مجلة، كما إن جميع أهالي الحي المولوي الذي يوجد به قصر الرياسة، بأعالي العاصمة والمطل على الميناء، يعرفون روبيسبيير ويسلمون عليه باحترام زائد، لا أحد يعرف كيف استطاع أن يفرض كل هذا الوقار على الصغار كما على الكبار، على النساء والرجال.

يرتدي روبيسبيير ذات الطقم منذ الاستقلال مع ربطة العنق نفسها مربوطة بفنية حول ياقة قميص أبيض ناصع لا يتغير، هو ليس الطقم نفسه ولا ربطة العنق نفسها، لكن روبيسبيير لا يشتري إلا من هذا النوع ومن هذا اللون الأزرق الكحلي، ولهذا الاختيار في الملبس حكاية إذ أن أول تجربة عشق عرفها كان يرتدي مثل هذا الطقم ومنذ ذلك الزمن لم يغير من ذوقه. لا يغادر عميد المستشارين مكتبه عند الثانية عشرة للغداء في مطعم عمي رابح البيسكري، كما يفعل غالبية المستشارين الذين عددهم يفوق المئة والثلاثين ضرة، الذين يتسابقون إلى طاولات الغداء فرادى وجماعات، لا يتحدثون في السياسة أبدًا ولا في الثقافة، كل أحاديثهم تدور حول النساء والحلاقين وأسعار السيارات وتذبذب أسعار الموز، ويعرفون مسبقًا ما هو الطبق اليومي الذي أعده عمي رابح البيسكري، روبيسبيير يُحْضر معه يوميًّا غداءه من بيته في طنجرة صغيرة من نوع تيفال، عند الساعة الثانية عشرة وخمس دقائق بالضبط أسمع نقرات الشوكة على الصحن الخزفي، بعد خمسة وعشرين دقيقة بالضبط أيضًا أسمع صوت خطواته خفيفًا على السجاد الفارسي للرواق السلطاني متوجهًا إلى الحمّام، فيذكرني على الفور بحكاية اغتيال يحيى بن خلدون فأشعر بقشعريرة، أصمّ أذني وأضع رأسي على

المكتب، بعدها بخمس دقائق أسمع صوت طرّادة الماء بالمرحاض، صوت مزعج، ثلاث دقائق ثم ها هو صوت خطوه على السجاد الفارسي ثانية وهو عائد إلى مكتبه الذي يغادره عند السادسة وعشر دقائق.

خلال عشرين سنة من الحياة المتجاورة، الجار الجدار للجدار، لم أبادل روبيسبيير سوى جملة واحدة، كان ذلك يوم وفاة زوجته الصحفية في الإذاعة الوطنية، وهي مقدمة أخبار بالقناة الثالثة الناطقة بالفرنسية، قلت له وأنا أنتظر عودته من الحمّام، واقفًا على عتبة مكتبي، الباب نصف مفتوح: "عظم الله أجركم". قلتها له بالفرنسية، نظر إليّ ثم أجابني: "لست أنا القاتل، الله هو من قتلها!". ثم واصل طريقه فوق السجاد السلطاني، وبهدوء أغلق باب مكتبه من خلفه ولم أبادله حديثًا من يومها، لكن شخصيته الغريبة أثارت فضولي مما جعلني أسأل سكرتيرتي عنه، وهي التي لا تخفى عنها خفية.

لأن قلبها على كفها ولسانها مدلوق بكل حرية وبلا رقيب، فهي حين تتكلم لا تختار الكلمات، كلامها ينزل دفعة واحدة. أعرف أن سكرتيرتي صونيا محسوب قد سقطت في حب روبيسبيير حتى الجنون منذ أول يوم اشتغلت فيه هنا بديوان الإنشاء الرئاسي، وهو ما جعل رئيس الحجاب مولاي بوعزة ينبهها ويوجه إليها رسالة تحذير خطية أنا من كُلِّفتُ

وقتها بكتابتها، وقد زدت عليها كثيرًا من التفاصيل التي اختلقتها اختلاقًا علني أبعدها عن هذا الغريم الغريب.

تقول صونيا محسوب إن روبيسبيير مُغْرٍ للنساء من خلال منظره الخارجي البورجوازي، وأيضًا لأنه عاشق للموسيقى، وقد نشر كتابًا كاملا عن الموسيقي الفرنسي كميي سان سانس Camille Saint Saëns الذي ولد بفي باريس عام 1835 وتوفي في الجزائر 1921 والذي تأثر كثيرًا بالموسيقى الجزائرية، وأن كثيرًا من مخطوطات تآليفه الموسيقية محفوظة في المركز الوطني للأرشيف وبعضها في المكتبة الوطنية الجزائرية.

لقد حرك هذا المستشار الغريب غيرتي؛ لأنني كنت أعتقد أن صونيا محسوب تحبني أنا باعتبار أنني باشْ كاتبْ مولاي قزمان أبو نسوان ومُدَلّله. حين يجيء اسم روبيسبيير على لسانها ترتجف، لقد عشقت فيه، كما تقول، غموضَه وصمتَه وعطرَه ولون طقمَه وياقةَ قميصه النظيفة دائمًا، دون أي أثر للعرق، وصوت الفرشاة الفضية وهي ترتطم على الصحن الخزفي عند الثانية عشرة وخمس دقائق محدثة إيقاعًا موسيقيًّا وكأنها نقرات نوتات على البيانو. هذه الغيرة التي سببها عشق صونيا محسوب المجنون لخصمي الغامض جعلتني وبصفتي باشْ كاتبْ مولانا ورئيس ديوان القلم

والإنشاء، أدبج تقريرًا مفصلاً وطويلاً لمولاي الحاكم صاحب الرياسة والكياسة أعرض فيه صورة حية عن "سوء الأخلاق التي يعرفها ديوان القلم والإنشاء، عن التصرف غير المنضبط لبعض المستشارين في القصر، وعن العلاقات المشبوهة التي تصل رائحتها حتى الحي المولوي". لكن مولاي قزمان أبو نسوان لم يتعب نفسه حتى بالاطلاع على تقريري بمجرد أن عرف موضوعه، فقد كان هو الآخر غارقًا حتى أذنيه في عشق وزيرة في حكومته، والتي يلتقي بها خفية في مكتبه ليلاً بعد أن يفرغ القصر السلطاني من الجميع ولا يبقى فيه سوى حرسه الخاص. الجميع يدرك أن الحاكم لا يضعف إلا أمام هذه الوزيرة المكلفة بحقيبة السياحة وحماية وتربية غزلان صيد الأمراء الخليجيين في الصحراء الكبرى، وهو لا يرد لها طلبًا، لذا لوحظ أن كثيرًا من الوزراء والسفراء والعقداء يجهدون في شراء رضاها وودها على الرغم من أنها جريئة وسليطة اللسان تجاههم.

هذا الصباح دخلتُ على صونيا محسوب وهي منهارة نفسيًّا ثم انفجرت باكية، أخذتها في حضني لأخفف عنها آلامها، استسلمت لي، النمرة في حضني قطة وديعة، وبعد لحظات عاد إليها بعض هدوئها لم تعد تشهق. رفعت إلي زوج عينين بلون أزرق قاتل ثم قالت: "لقد ماتت زوجته، الآن

هي فرصتي للإجهاز عليه، عليك يا "أستاذ" عمّار أن تساعدني، أنت باشْ كاتبْ مولانا الحاكم وأنت المستشار الأقوى وأنت رئيس ديوان القلم والإنشاء، أنت الكل في الكل، كلامك مسموع وقلمك مرفوع، أريد أن أتزوجه وأمثل معه المسرحية التي يشتغل على كتابتها منذ عشرين عامًا".

حررتها من ذراعيّ، تراجعتُ خطوتين إلى الوراء، فكرت في قاموس لسان العرب لابن منظور والمقاييس لابن فارس، لست أدري لماذا فكرت في لسان العرب والمقاييس؟ ربما لأنني عجزت عن التفوه بكلمة واحدة. شعرت بلساني خشبة مبللة في فمي، عدت إلى مكاني خلف المكتب محاولاً السيطرة على نفسي، وظلت صونيا محسوب واقفة في مكانها تنتظر مني جوابًا شافيًا، أنا الذي لديّ الأجوبة الشافية لأمراض البلد، وأمراض الجلد وأمراض العشق، ظلتْ لدقائق طويلة وهي تحدق فيّ في صمت نمرة شرسة.

أخرجت صونيا محسوب مرآة صغيرة من حقيبة يدها، رتبت ماكياجها قليلاً، مررت المشط في شعرها المصبوغ باللون الذهبي عند الأطراف، وغادرت ديوان القلم والإنشاء. كنت أتوقع أنها ستفتح باب مكتب المستشار روبيسبيير لتقدم له واجب العزاء ولتقترح نفسها شريكة له في السرير، لكنها لم تفعل شيئًا من ذلك.

الواقع أنني كنت أريد أن ألحق بها وأعيدها إلى رشدها، لكنني خفت من المشي فوق السجاد الفارسي الذي يحولني إلى يحيى بن خلدون أو عبد الحميد الكاتب أو ابن عمّار باش كاتب المعتمد بن عباد؟

في اليوم التالي سمعت وكالة الأخبار على أمواج القناة الثالثة بالفرنسية بصوت فازية كنوز زوجة روبيبسبيير التي لم تمت أبدًا، فإشاعة موتها كانت عبارة عن لعبة مسرحية من قبل زوجها كي يحرك غيرتي من خلال دفع صونيا محسوب إلى اتخاذ موقف عاطفي لمصلحته، وربما لكي تغادر كلية الديوان.

______ مجرد

بمجرد إذاعة خبر تعرض مولاي الحاكم صاحب الكياسة إلى سكتة دماغية، نُقل على إثرها إلى مستشفى في بلد الروم العدو الاستعماري، غادرتُ على الفور مكتبي بديوان الإنشاء، عدت إلى بيتي الذي غبت عنه أيامًا عديدة، وظل روبيسبيير المستشار الأقدم يمارس حياته عاديًّا وكأنه لم ينتبه أصلاً لخبر إصابة مولاي قزمان أبو نسوان بسكتة دماغية. لم يغير من عادته، يحضر معه أكله، يتناوله على الساعة الثانية عشرة وخمس دقائق، ثم يمر بالرواق على الساعة الثانية عشرة وخمس وعشرين دقيقة، يسحب طرادة الماء في التواليت ثم يعود إلى مكتبه، يعمق بحثه عن الموسيقي كميي سان سانس Camille Saint Saëns، ويفكر في تحقيق بعض سيمفونياته الموجودة في مصلحة المخطوطات بالمكتبة الوطنية وبالمركز

الوطني للأرشيف، وعرضها على أوركسترا الأوبرا الوطنية لعزفها في حفل نهاية السنة القادمة.

عدت إلى بيتي، لبست الجلابة التلمسانية والبلغة الفاسية الصفراء والقبعة الاسطنبولية الحمراء والجوارب التونسية البيضاء الناصعة، ودخلت في حالتي الخاصة في قراءة القرآن وأكل الكسكسي الأسود باللبن الأبيض. انقطعت نهائيًّا عن قواميسي، ومع ذلك كلما خرجت إلى دورة المياه كنت أشعر بأحد يتبعني كما لو أنه يريد أن يخنقني فأصرخ: "أنا لست يحيى بن خلدون ولم أكتب تاريخ بني عبد الواد". تسرع زوجتي من غرفتها والتي اسمها كاسم الزوجة الأولى، ترش وجهي بماء الورد البارد، أدخل المرحاض فأنتبه بأنني تبولت في سروالي، أدخل الحمام مباشرة أقف تحت مرشاش الدوش، أغتسل وأغير ثيابي وأقفز إلى مكتبي الذي هو غرفة نومي أيضًا إذ إنني ما عدت أستطيع النوم على سرير مشترك مع زوجتي. كنت أفضل العزلة حتى لا أصرخ في الليل مناديًا على صونيا محسوب، فأثير غضب زوجتي وتسلمني إلى ابن تاشفين قاتل يحيى بن خلدون لأنني أدرك أنها تعرفه جيدًا وهي على علاقة به، لا تنتظر سوى خطأ مني كي تشير عليه بِلَيِّ رقبتي!

قضيت أياما وأنا أسمع الأخبار الشحيحة عن صحة صاحب الرياسة والكياسة من خلال القناة الثالثة بالفرنسية

على لسان فازية كنوز زوجة روبيسبيير، حتى إنني بدأت أكتشف جمال صوتها، بل بدأت تربطني به بعض الأحاسيس الغريبة، ما بين الإعجاب والحب، في بحتها شيء رومانسي وإيروتيكي أيضًا، مما جعلني أنسى مضمون الأخبار الدولية والرياضية وأستلذ نغمة صوتها، ومع ذلك كنت أشعر بين الحين والآخر أنني نسيت مهمتي الأساسية "الباشْ كاتبْ محرر خطب ورسائل الحاكم بأمر الله وشرعه". إذن عليّ أن أعطي الأهمية للخبر الوطني وما خلف الخبر لا للصوت الذي يذيع هذا الخبر.

أستغفر الله وأطلب عفو مولاي قزمان أبو نسوان.

بعض الجرائد الفرانكفونية فرحة بالسكتة الدماغية التي أصابت مولاي الحاكم قزمان أبو نسوان، أكره هذه الصحف الحاقدة وأتجنب قراءتها، مع ذلك أقرأها يوميًّا مضطرًّا لأنني أعرف أن مولاي كان يقرأها فهي التي تصنع الرأي العام وتؤثر في رأي الطبقة السياسية، وهي من يصوغ صورة البلد في عيون الخارج من الأصدقاء ومن الخصوم المتربصين. أكرهها لأنها حاقدة دائمًا على الحاكم مع أنني فقيه في الفرنسية أنا الذي حفظت ثلاثة أرباع لاروس وأنا في الكوليج، ونسخته كاملاً تقريبًا، وقرأت كلاسيكيات الأدب الفرنسي في الشعر والنثر: بدأتها بـ "الأمير الصغير" لسان إكزوبيري

"أزهار الشر" لبودلير وقد حفظت الديوان كاملاً، و"البؤساء" لفيكتور هيغو، و"الغريب" لألبير كامو، و"الأحمر والأسود" لستندال، و"كنديد أو التفاؤل" لفولتير، و" كونت مونت كريستو" لألكسندر دوماس، و"في البحث عن الزمن المفقود" لبروست، و"جيرمينال" لزولا، و"السيد" لكورناي وغيرها.

أترك المذياع مفتوحًا على القناة الثالثة الناطقة بالفرنسية كامل النهار والليل، يحدث أن أمر وبشكل خاطف على إذاعة BBC التابعة للهيئة البريطانية ثم أعود على الفور إلى القناة الثالثة الجزائرية، لست أدري هل أنتظر الأخبار الجديدة عن حالة الرئيس أم أنتظر نغمة صوت فازية كنوز زوجة روبيسبيير وهي تغرد الراء الفرنسية تغريدًا؟

في الواقع أنا لا أحب فازية كنوز ولكني أريد أن أنتقم من زوجها الذي أشاع في ديوان القلم والإنشاء خبر موتها، ربما لم يكن هو من نشر الخبر إنما صونيا محسوب هي التي قامت بذلك كي تقنعه بأنها ماتت فتتزوجه؟

______ اليوم

اليوم قررتُ، وبعد تناول فطور الصباح باكرًا، ودون تخطيط مسبق أن أذهب لزيارة قريتي جنان طيطمة لغرض واحد، هو الوقوف على ضريح الولي الصالح سيدي عبد الله معتوق دفين قمة جبل زندل أو هندل أو سابوز على حد تعبير ابن خلدون عبد الرحمن وليس يحيى، والذي كنت دائمًا أحلم بزيارته وأنا لم أتجاوز الثامنة، وبالضبط منذ انتبهت بأن هناك جبلاً يطل على قريتنا من الجهة الجنوبية. كان ذلك يوم لَبِسْتُ أول نظارة في حياتي، وهي أول نظارة يلبسها أحد أبناء القرية. كنت أسمع قصصًا كثيرة عن هذا الولي، ولعل أكثرها تأثيرًا فيّ هو أنه كان يملك القوة الخارقة لمعالجة المصابين بالشلل الكلي أو الجزئي، إذ تروي النساء أنهن كن يأخذن إليه كل من تعذر عليه المشي على قدميه من الرجال والنساء

والأطفال، يُتْرَك المريض ليقضي ليلته وحيدًا ملفوفًا بقطعة ثوب أبيض، من نوع الثوب الذي يستعمل في خياطة الأكفان، تحت القبة عند قدمي الضريح لينهض في اليوم التالي مع أذان صلاة الفجر مباشرة واقفًا على قدميه سالمًا وكأن شيئًا لم يكن، فيطوف مسرعًا كالغزال سبع مرات حول الضريح، وقبل مطلع شمس النهار تُذبح لذلك القرابين ويُقرأ القرآن وتغنى أشعار المديح في النبي عليه السلام وأخرى في الولي الصالح سيدي عبد الله معتوق، ومع ساعة العصر ينزل المشلول ماشيًا إلى القرية كسائر العباد فرحا بعودة الروح إلى قدميه.

حين وصلت إلى قرية جنان طيطمة قادمًا من آلجي أو إيكوزيوم متعبًا قليلاً لكن بشوق كبير لرؤية ناس القرية الطيبين، بحثت أولاً عن الجبل لم أجد له أثرًا، أين رحل الجبل؟ أي سماء رفعته فوق غيمها أو أي أرض بلعته في جوفها؟ سألت نفسي وكأن ما تخزنه ذاكرتي لم يكن إلا وهمًا من أوهام الطفولة عن الجغرافية والطبوغرافية؟ قررت أن أسأل أحدًا من المارة عن الجبل الذي ربما يكون قد سُرِق في غفلة من الجميع، أو يكون الولي الصالح سيدي عبد الله معتوق أو برقوق قد جنّح به إلى مكان آخر، لكنني تراجعت خجلاً من طرح سؤال كهذا؟

كنت أتوقع أن يستقبلني ناس قرية جنان طيطمة بحفاوة وبارود الأفراح كما عودوني في كل مرة أجيء فيها لزيارة مرابع الطفولة والصبا. الواقع أنني منذ عشرين سنة، أي منذ أن اختِرتُ لمنصب باشْ كاتبْ مولاي قزمان أبو نسوان، منذ أن أصبحت رئيسًا لديوان القلم والإنشاء، لم أزر القرية إلا ثلاث مرات كنت أَصِلُها ليلاً وأغادرها مع مطلع الفجر، كان ذلك مع كل موعد الانتخابات لتجديد العهدة أو البيعة لمولاي الحاكم، ألتقي بالأعيان من الموسيقيين والفقهاء وكبار المهربين الذين يعملون على الحدود مع بلد سلطان الغرب. كنا نشرب الشاي كثيرًا مع الفستق السوداني وخبز الفتير المحشو بالشحم والقديد، ونتحدث عن كثرة العوانس من النساء وذلك دليل على أن نهاية العالم قد اقتربت، ونحن على بعد خطوات من يوم الدين.

اليوم حين وصلت الباب الخارجي لقرية جنان طيطمة، عند الظهر، وجدتها في جد وحركة، الناس في الأسواق العامرة، روائح الخبز تصل من الأفران منعشة، رائحة النعناع تطغى على كل الروائح الخارجة من المقاهي الشعبية، لكن الغريب أنني حين نزلت من سيارتي وبمجرد أن لمست قدماي أرضها حتى تغير كل شيء، كنت كلما مررت بشارع أو زقاق أغلق التجار أبواب محلاتهم، توقف المارة من على الرصيف

عن الكلام أو الابتسام أو المشي، رفع سائقو السيارات زجاج نوافذهم وركنوها على الأرصفة بشكل غير منظم، عاد التلاميذ مسرعين من منتصف الطريق إلى منازلهم مقاطعين دروسهم، الأسواق أغلقت فجأة وفي لحظة واحدة، بائعو الخضر والفواكه والتوابل الكثيرة والمنوّعة المعروضة بشكل هندسي بديع غطوا أسلعتهم بغطاء من نايلون أبيض، ثم تمددوا خلف الرفوف اللوحية التي يعرضون عليها بضاعتهم واستغرقوا في قيلولة قبل أوانها، توقف مؤذن الجامع العتيق في منتصف الأذان، يحدث هذا لأول مرة في هذا الجامع الذي بناه أحد الملوك الذين تحدث عنهم ابن خلدون، عبد الرحمن وليس يحيى (لا أذكر اسمه)، ألغيت الصلوات الجماعية في المساجد. كنت أمشي في صمت رهيب، لا أحد تعرف علي، بل إن الجميع كان يدير وجهه إلى الجهة الأخرى كي لا يراني، تحققتُ مني فوجدتني أنا هو أنا: عمار النساخ الثاني حفيد سيدي عمار النساخ الأول؟ دخلت المسجد كان فارغًا تمامًا، لا يسمع فيه سوى صوت حنفية مكسورة تقطرُ، بدا صوتها مرعبًا في هذا الصمت. نظرت خلفي وأنا أمشي فوق السجاد فعاد يحيى بن خلدون ليسكنني، وإذ بظل قاتلي يتبعني، يَهُمُّ بوضع ذراعه المفتول حول رقبتي ليضغط ويضغط ويضغط حتى أسلِّم الروح إلى باريها في هذا

المسجد العتيق الذي بني منذ تأسيس قرية جنان طيطمة.

كان الإمام جالسًا مقرفصًا في اتجاه القبلة، حين رآني استدار عكسها وبدأ يركع كي لا أبادله السلام أو الكلام. حييته فلم يرد عليّ، فاجأني، ودون أن يدير وجهه تجاهي، مادًّا ذراعه ليمنحني نسخة من شجرة العائلة وكأنني جئت أطلب منه ذلك، في وسط المسجد مسجد الحاجة طيطمة لا يزال البئر الذي أنشئت القرية بيتًا فبيتًا من حوله قائمًا في مكانه، وقد حرص أبناء القرية، خاصة الفنانين والشعراء والموسيقيين على تعمير المسجد فوق البئر مباشرة، ومنذ ذلك الزمن لم يجف البئر، ولا يزال الناس يشربون منه ويتوضؤون بمائه المبارك. بي عطش وحين مددت يدي كي أسحب الدلو من أعماق البئر طلع فارغًا دون قطرة ماء واحدة، وكأن البئر جافة. أنزلت الدلو ثانية وأرخيت الحبل حتى الأخير ثم سحبته ولم يكن في الدلو ماء كما في المرة الأولى، مع أنني حين نظرت إلى عمق البئر بدا الماء صافيًا وقد وصل إلى مستوى قريب من الحافة، حتى إنني رأيت وجهي منعكسًا على صفحته، وقد تأكدت مرة ثاية بأنني أنا هو أنا، عمار النساخ لا غير..

غادرت وبسرعة المسجد العتيق الذي تم استبدال اسمه من "مسجد الحاجة طيطمة" إلى اسم غريب هو "مسجد

البئر"؛ لأن جماعة احتجت على اسم طيطمة باعتباره يحيل على اسم مغنية كانت تشرب النبيذ وتمارس الغناء والرقص اشياء أخرى، وهي ليست حاجة كما تناقلته الأجيال. "مسجد البئر" هذه التسمية ترعبني، لطالما قرأت الكثير عن أخبار حروب التوريث بين السلاطين والخلفاء، حيث انتهى العديد منهم جثة هامدة مذبوحة أو مقطوعة الرأس في قعر البئر، وفي كل حكاية يكون للباشْ كاتبْ دور أساسي في ذلك، أزيد من سبعة آلاف وثلاثمائة وستة وثلاثين حادثة اغتيال كان البئر هو من استقبل فيها الجثث كاملة أو أنصافها أو رؤوسها فقط، ميتة وبعضها حيًّا، ابتداء من المؤامرة على سيدنا يوسف عليه السلام إلى قصص الخلفاء والأمراء والوزراء والسفراء، وفي جميع هذه الحالات السلطة والغيرة والنساء العشيقات هي محرك المحنة. شعرت بالإمام الذي كان يعطيني ظهره معقوف الكتفين قليلاً متوجهًا وجهة معاكسة لاتجاه القِبلة كأنما يتربص بي، يراقبني بعينين مفتوحتين على وسعيهما مثبتتين في ظهره كي أقترب من حافة البئر لينهض مسرعًا ويدفع بي لأسقط في القاع، وبذلك تنتهي مهمتي في كتابة رسائل وخطب الحاكم مولاي قزمان أبو نسوان. شعرت أنه كان يريد لي موتًا مختلفًا عن موت يحيى بن خلدون وعبد الحميد الكاتب وابن عمّار. الآن أنا

أحسد ياسين كاتب أو كاتب ياسين على موته، موت بدفن عظيم، دفن في مقبرة الشهداء بحفل وزهو، حتى إن بعض عشاق أدبه رموا في قبره قبل أن يُرَدّ عليه التراب بكمية من الحشيش. أنا أحسد كاتب ياسين مع أنه شيوعي وكافر على هذا الموت الاحتفائي، وأمقت يحيى بن خلدون وعبد الحميد الكاتب وابن عمار مع أنهم كانوا مسلمين مثلي على سنة الله ورسوله.

أشعر بدوار في رأسي، وقفت في الساحة العمومية التي يقام فيها السوق الأسبوعي كل يوم اثنين، واليوم هو يوم اثنين، وإذا الرحبة فارغة، الجميع غادرها، حتى القطط التي كثيرًا ما اشتكى التجار من كثرة عددها لم يكن هناك ولا قط واحد. الأشجار كانت بدون ظل. من رحبة السوق كما يسميها أهل القرية نظرت في اتجاه الجنوب فلم أجد الجبل، ونظرت جهة الشمال فلم أعثر له على أثر، ثم في كل الاتجاهات، وأدركت أن الجبل هُرِّب أو سرق، وأنا الذي جئت للتأكد من وجود الجبل في مكانه وزيارة الضريح أيضًا كي أقنع الحاكم قزمان أبو نسوان للمجيء هنا، كي ينزل في اليوم التالي على قدميه المباركتين دون كرسي متحرك.

عليّ أن أغادر المكان. قلت في نفسي لنفسي، هذا موعد صلاة العصر على الأبواب سيرفعه المؤذن الأعمى السي

شريف التيجاني الذي يعد منذ شبابه ولا يزال أمهر عازف في الفرقة الموسيقية الأندلسية "السندسية"، التي تفتخر بها قرية جنان طيطمة وتباهي بها المدن الأخرى في المهرجانات العالمية للموسيقى الروحية، لكن المؤذن السي شريف التيجاني لم يرفع الأذان، إذن ستسقط علي لعنة السماء وهو الذي لم يخلف ولو مرة واحدة رفع الأذان منذ ثلاثين سنة أو أكثر، وسيجتمع حولي سكان القرية نساؤها ورجالها وأطفالها وسيقبضون عليّ ليرموا بي في نار أول فرن مخبزة، أو في قعر البئر الذي أتصور الآن بأنه استقبل عشرات الجثث قبلي.

عدت إلى سيارتي التي ركنتها عند مدخل الحي العتيق قبالة الباب الخارجي للقرية، وهو حي الموسيقيين والشعراء الذي كان الأساس الأول الذي تشكلت من حوله القرية والتي أضحت اليوم مدينة، على الرصيف غير بعيد عن موقف السيارة وجدت ضريحًا ملفوفًا بستار أخضر لم أنتبه إليه من قبل، ركبتُ سيارتي، أدرت المفتاح، تكلمت فازية كنوز قائلة على أمواج القناة الثالثة قائلة: "إن أحد الوزراء في حكومة مولاي قزمان أبو نسوان وهو طبيب بيطري يقال إنه درس في نفس المدرسة التي درس بها هتلر، أقسم أمام وسائل الإعلام الوطنية والأجنبية أن صاحب الرياسة والكياسة سيقف على قدميه في ظرف أقل من ثلاثة أشهر". خفت أن يتحرك

الحاكم ويقوم من على كرسيه المتحرك وأنا على بُعد يزيد عن ستمئة كيلومتر من ديوان القلم والإنشاء، وستفوتني فرصة استقباله في القصر وهو يمشي راقصًا كعهدي به. وأنا أغادر القرية بسرعة خارقة كنت ألقي نظرة إلى الشوارع عبر المرآة الارتدادية فإذا هي تتحرك، الناس تعود إلى ما كانت عليه، المدارس تفتح وأجراسها تدق والتلاميذ يسرعون الخطى والمعلمون أيضًا. المخابز رائحة خبزها الشهي عادت إلى السماء وعبق نعناع شاي المقاهي أيضًا. آذان العصر يرفع بطريقة أندلسية مثيرة وجميلة، حين اختفت الشوارع من على صفحة المرآة الارتدادية، وقد غادرت القرية نهائيًّا وأصبحت على الطريق الوطني رقم 1 المؤدي إلى إيكوزيوم، نظرتُ في اتجاه الجنوب فإذا بالجبل قد عاد إلى مكانه، كما كنت أراه بنظارة الطفولة منذ نصف قرن أو يزيد.

مطر خفيف بدأ يتساقط، ضغطت على قفل مسّاحة الزجاج فتراقص الذراعان يمينًا ويسارًا بهدوء ثم بسرعة، وشعرت برغبة في الرقص، ثم برغبة أخرى في الموت، لكن ليس على طريقة يحيى بن خلدون ولا موت عبد الحميد الكاتب ولا ابن عمار. أريد موتًا كموت كاتب ياسين، أجمل رغبة في الحياة هي تذوق الموت حتى الثمالة ثم العودة إلى الحياة لتعيشها حتى الثمالة في انتظار موت ثان، لماذا لا

نموت مرتين على الأقل حتى لا نظن نخاف من الموت؟ قلت هذا ثم استغفرت الله على هذا الفكرة الملحدة. من يفكر في كاتب ياسين تسكنه أفكار جهنمية زنديقة.

على رأس كل ساعة أسمع صوت فازية كنوز تقرأ نشرة الأخبار، فأفكر في روبيسبيير وأتصوره يعزف سيمفونية كميي سان سانس Camille Saint Saëns في انتظار عودة صونيا محسوب إلى ديوان القلم والإنشاء، كي يغريها بعزفه ويستمتع بجسدها المكتنز ويؤكد لها ثانية خبر موت زوجته، وأن تلك التي تقرأ الأخبار هي فازية أخرى تقلد صوت المرحومة زوجته! الغبية صونيا محسوب سوف تقتنع بما يقول وتسلم له جسدها، أعرف أن روبيسبيير صديق حميم لرئيس الحجاب، وأن زوجة هذا الأخير السيدة حميدة نقاز المهتمة بدراسة الفن التشكيلي لا تستغني عن ملاحظات وأفكار وتوجيهات روبيسبيير، فهو الذي يصحح لها مخطوطاتها، وهو الذي وضع لها مقدمة لكتابها الذي كتبت عنه جميع الصحف الفرانكفونية. بين الفينة والأخرى تحرك الغيرة فازية كنوز حين تلاحظ سلوك زوجها الشاعري تجاه حميدة نقاز، لكنها تقاوم ذلك بفكرة وفاء روبيسبيير لرئيس الحجاب، فهو لن يخون ثقته أبدًا.

______ في

في هذا المقهى البسيط، كلما تقاسمت هذه الطاولة مع بوب مارلي أكتشف أكثر وأكثر شفافيته وشاعريته وطفولته التي لا تشيخ فيه، من شرفات آلجي أو إيكوزيوم، أي من حي تليملي حيث نجلس نحتسي قهوة إيطالية ثقيلة، ينظر بوب مارلي وهو في حالة شبه صوفية إلى شوارع المدينة الكولونيالية من تحتنا وهي تنهض ضد حاكميها الذين أعدموا الحلم فيها. يتذكر تفاصيل يومه الأول حين دخلها أول مرة، هذه المدينة المخيفة الغولة، كان عمره قد تجاوز السادسة عشرة بأشهر قليلة. لقد قضى أول ليلة له فيها بمخفر الشرطة بكافينياك بوسط العاصمة، وجد نفسه ضائعًا في أزقة خلفية مظلمة، مشبوهة وكثيرة الحركة، وقف في شارع طنجة العريق على بعد أمتار من ساحة الأمير عبد القادر، وهو الشارع

المعروف بمطاعمه وخماراته الشعبية، يشتم رائحة الفاصوليا المطبوخة في المرق الأحمر مع البهارات المتنوعة المثيرة المنبعثة من مطعم "ملك اللوبيا" الشهير، وهو المتخصص في طبق الفاصوليا في المدينة، فجأة وإذا بالشرطة تحاصر الشارع من مدخليه، يبدو أن هناك معركة اندلعت بين رجلين بالخناجر حول من يحق له مصاحبة امرأة كانت تبدو مخمورة، تضحك بصوت عال غير مبالية بالمتخاصمين. تم تكبيل الشاب المهدي أخريف وأخذه إلى المخفر صحبة المرأة والرجلين اللذين ما أن ركبا سيارة الشرطة حتى بدآ يتعانقان بمحبة، حيث يطلب الواحد من الثاني السماح. بمجرد وقوف بوب مارلي أمام رئيس المخفر حتى اكتشف بأن الشاب غريب عن مثل هذا السلوك الإجرامي وأن في الأمر خطئًا ما. أراد أن يخلي سبيله على الفور لكنه أدرك أنه لا يملك سقفًا يأوي إليه، فمنحه غطاء وأشار عليه بأن ينام في مكتب مجاور حتى الصباح. يقول بوب مارلي وهو يضحك وفي عينيه دمعة:

"كان رئيس المخفر رجلاً لطيفًا، تصرفه تجاهي فيه من شعور الأبوة. لا أتذكر أنني نمت نومًا هادئًا وهنيئًا طوال خمسة وعشرين سنة قضيتها في هذه المدينة مثل نوم تلك الليلة في المخفر، الليلة الأولى بإيكوزيوم، أن تنام في المخفر

وتحت حماية الشرطة فأنت من فصيلة الأنبياء والمختارين".

يقول ذلك وهو يضحك كالطفل.

في تلك الليلة أيضًا، وقبل أن يمنحه رئيس المخفر الغطاء ويطلب منه النوم في المكتب المجاور، وبمجرد أن انتبه أحد الرجلين اللذين تخاصما بالخناجر بوجود هذا الفتى في هذه الورطة التي تتسببا له فيها، أثار شفقته وقد أدرك أنه شبه ضائع، فاقترح عليه أن يزوره في اليوم التالي في مكتبه بالمديرية العامة للشركة الوطنية للكهرباء والغاز (سونلغاز)، حيث يشتغل رئيس مصلحة الموارد البشرية. وبالفعل في اليوم التالي ذهب بوب مارلي إلى تلك البناية العظيمة بعد أن وصل إليها دون كبير بحث، فهي غير بعيدة عن وسط المدينة والجميع يعرف موقعها. عند الباب الخارجي سأل عن اسم السيد، ومن حسن حظه فقد وجد الحارس من أقارب هذا الأخير إذ يحملان نفس الاسم العائلي، بل يتشابهان كثيرًا حتى في ملامح الوجه، فقاده مباشرة إلى مكتب رئيس المصلحة في الطابق الخامس، استقبله بكثير من الترحيب، وقد بدا الرجل هادئًا يثير كثيرًا من الاحترام لدى من هم حوله، بل إن بعضهم كان يناديه "يا الحاج". سأله عن وضعه، فعلم أن الفتى قادم من ريف مدينة المدية، وأنه إن لم يؤخذ بيده سيسقط لا محالة طُعْمًا سهلاً في فم غول اسمه

"غول آلجي العاصمة"، فاقترح عليه أن يشتغل حارسًا ليليًّا مؤقتًا بالمؤسسة، وهو ما يحميه من مخاطر ليل المدينة، وأيضًا ما يسمح له بكسب قوت يومه إلى حين. قبل الشاب المهدي أخريف على الفور اقتراح السيد الدا رابح تازغارت، ومن يومها بدأ الشغل في هذه الشركة الكبيرة حارسًا ليليًّا، يقضي الليل في الحراسة ويقضي النهار في الشوارع يكتشف إيكوزيوم ركنًا ركنًا، ثم شيئًا فشيئًا ونظرًا إلى ما أبداه من ذكاء واستعداد للعمل، فقد حول إلى مصلحة المحاسبة، ليشغل منصب مساعد جابي الفواتير، ليتولى هو نفسه بعد فترة قصيرة وبعد أن أصيب الجابي بحادث مرور أقعده الفراش لشهور، وليعود إلى العمل بعاهة في ساقه لا تسمح له بالتنقل بين العمارات وتسلق سلالمها، وهو ما جعل مسؤول مصلحة الجباية والفواتير يعين المهدي أخريف في هذا المنصب، وبذلك أصبح وفي فترة خمس سنوات الشخصية العاصمية الأكثر شهرة.

يتأملني ويروي لي ما حكاه ليلة القبض عليه في شارع طنجة لرئيس الخفر، الذي كان أبوه هو الآخر أيام الاستعمار رئيس مخفر الشرطة وفي هذا المكان نفسه كما صرح له بذلك، حكيتُ له ما يلي حين سألني عن سبب مغادرتي القرية والأسرة:

"قررت أن أغادر القرية بعد أن رأيت دموع أبي، لم أكن أفكر أو أتصور يومًا أن لأبي دمعًا في العينين. كنت أعتقد أنه لا يتألم ولا يخاف ولا يتردد ولا ينهزم. اليوم وجدته منهزمًا، كان واقفًا أمام بقرتنا الوحيدة وهي ميتة ممددة في الإسطبل باردة المفاصل، ينظر إليها واضعًا يديه على ركبتيه ويبكي، يبكي كما يبكي الأطفال، كما أبكي أنا، أو يبكي الآخرون من أقراني.

كانت أمي واقفة بجواره، شجاعة دون دمع ولكن الفجيعة كانت مخبأة في الداخل، وبين الحين والآخر تنظر إلى زوجها، أي إلى أبي، وتعدل من بعض خصلات شعرها الأحمر المنفلتة من تحت المنديل ذي الألوان الزاهية.

حين وصل الجيران من الرجال انسحبت أمي من الإسطبل بعد أن نهرت أبي طالبة منه أن يكف عن البكاء، فالبكاء للأطفال. لكنها خرجت هي الأخرى باكية، تبعتها وسمعتها تشهق في الغرفة المجاورة وتضرب على فخذيها وأختي الكبرى تهدئ من روعها. كان الناس في القرية يطلقون على أختي الكبرى اسم "البايرة"، ومعناها الفتاة التي تزوجت أخواتها الأصغر منها وظلت هي دون زواج، حين فهمت ذلك أحببت أختي كثيرًا.

لم أكن أنظر إلى البقرة، كنت أشاهد حركات والدي، أتابعه بدقة وبدهشة وحيرة. جاء عمي سليمان وعمي

المصطفى ولحق بهما آخرون من الجيران في المداشر الأخرى. كان موت البقرة كموت أحد أبناء أو بنات المداشر. لقد خيم الحزن على الجميع. لم أكن أتصور أبدًا أن تكون للبقرة كل هذه المكانة.

بعد ساعة أو أقل جاؤوا بحبلين طويلين، ربطوا جثة البقرة من قدميها الخلفيتين ثم شدوهما إلى بغلين، وهكذا سُحِبت البقرة من الإسطبل وسار الجميع خلفها في سحابة من غبار خريفي خفيف. كان والدي يمشي خلف الجثة وهو ساكت، متأمل المشهد بكثير من الصمت والحزن. سرنا خلفها أقل من كيلومترين، حتى وصلنا ضفة نهر المالحة، هذا النهر الذي يجري ماءً بطعم مالح من شهر نوفمبر وحتى نهاية الصيف، تركوا البقرة هناك ثم عادوا. كان النهر ساكتًا، لم يكلم أحدًا ولم يكلمه أحد.

سألت عمي سليمان: هل ستبيت البقرة هنا؟

لم يرد عليّ، لكزني بمرفقه، ثم واصل سيره بجوار والدي الذي له سلطة كبيرة على أخيه الأصغر، فعمي سليمان هم أصغر أعمامي، وحين يخاطب أخاه الأكبر أي والدي يناديه بـ "سيدي" احترامًا له، فوالدي هو الوحيد من بين إخوته الأربعة الذي قرأ القرآن وحفظه، وتعلم الفرنسية التي يفهما جيدًا ويقرأ بها ويتكلمها بيسر.

في الليل تسللت من تحت الغطاء المشترك ببورابح الذي كنا نتغطى به أنا وأخي الأكبر، وخرجت إلى الحوش. كان القمر منتصفًا يضيء الأنحاء. عرفتني كلاب الجيران فلم تنبح فيّ، مشيت حتى ضفة نهر المالحة، وجدت البقرة هناك ممددة، جثة هامدة، لمست أذنيها ولم تتحرك، ثم قبلتها بين العينين وعدت إلى البيت. وقبل أن أعود إلى فراشي دخلت الإسطبل فوجدت والدي هناك جالسًا رأسه بين ركبتين، لم تكن البقرة هناك.

في الصباح لم أخبر أحدًا بما قمت به ليلاً، ولم أكن متيقنًا أن بعضهم كان على علم بما قمت به. وفي الليلة التالية قمت بالشيء نفسه، وحين عدت وجدت والدي في المكان نفسه ورأسه بين ركبتيه جالسًا على الأرض وحيدًا في ظلمة الإسطبل.

لكني وبعد أسبوع حين عدت هذه المرة لم أجد البقرة في مكانها. بحثت عنها، لم تكن هناك، واعتقدت أن أحدًا أعاد إليها الحياة وسرقها لتنام في إسطبله، لكني حين عدت إلى بيتنا وكما في المرات السابقة دخلت الإسطبل لأتيقن أنها لم تعد إلى مكانها، وجدت والدي لكنه هذه المرة رفع رأسه في اتجاهي قائلاً: "لقد دفناها يا بني تحت الأرض".

بكيت بصمت، وعدت إلى فراشي وقد شعرت ببرودة غريبة في مفاصلي.

لم أدخل المدرسة القرآنية كما فعل كثير من أقراني، بل ما حفظته من القرآن أخذته عن والدي مباشرة. كنت أجلس قبالته عصرًا، وكانت له عادة القراءة جهرًا يوميًّا تقريبًا قبل موعد تناول قهوة العصر، التي هي عادة ثابتة ولا يمكن القفز عليها في تقاليد المائدة في أسرتنا. وكانت ساعة قهوة العصر هي أحب أوقات النهار لدي، حتى إن جدي أطلق عليّ اسم "موح القهوة"؛ نظرًا إلى تعلقي بهذا الموعد وأيضًا شغفي بشرب القهوة السوداء منذ الصغر.

كان والدي رجلاً أنيقًا، ببشرة بيضاء وشعر مائل إلى الشقرة، حين يقرأ القرآن يدخل في حالة شبه صوفية، فيبدو أكثر إغراء لأمي التي تجلس بجواره ولا تفارق عينيها أصابع قدميه المنحوتة بعناية ربانية كبيرة، وأجلس أنا قبالته مركزًا على ملامح وجهه المدوّر وعلى لون عينيه المائلتين نحو الزرقة، وألاحق ما يقرأه جهرًا، ومرات أتمتم معها مرددًا بعض الآيات. يظل المشهد على حاله مدة ساعة تقريبًا قبل أن تنزل مائدة القهوة فيتوقف أبي عن القراءة الجهورية. تلف أمي المصحف في فوطة بيضاء ناصعة بأطراف مرسوم عليها بالأخضر أهلة ونجوم خماسية وسداسية. تقبل المصحف ثلاث مرات ثم تضعه في مكانه بدولاب الخزانة حيث لا يمسه أحد.

أشرب القهوة وأحاول أن أتذكر بعض ما تابعته من قراءة والدي، ومع مرور الزمن بدأت أنتظر وعلى شغف أن أسمع سورة "البقرة"، وكان والدي يحبها كثيرًا ويقرأها ويعيد قراءتها على طولها. ولست أدري لماذا كنت أربط بين حادثة بقرتنا وسورة البقر في كتاب الله، وكنت أشعر أن أبي كان يقرأ هذه السورة لينسى بقرتنا أو لكي يودعها الوداع الأخير، وكانت أولى السور التي حفظتها عن ظهر قلب على الرغم من طولها".

كان رئيس المخفر يستمع إلى حكايتي وحين انتهيت من حديثي قال لي: ستكون كاتبًا أو موسيقيًّا، وها أنا ذا اليوم حصال فواتير شركة الكهرباء والغاز.

قال الدا المولود لبوب مارلي: ولكنك فنان أيضًا، المتظاهرون في المسيرة ينتظرون عزفك وغناءك كل جمعة، فلا مسيرة ولا جمعة بدون بوب مارلي.

كلما ______

كلما اختفى الحاكم قزمان أبو نسوان وغاب عن الأنظار أو أذيع خبر رحلة علاجية أو مراجعة طبية إلا وارتفعت عاليًا أسهم رسائلي، فأنا من يبرر هذا الغياب وهذا الصمت وهذه الاستشفاء، وكنت أجهد نفسي كل يوم علي أعثر على حدث محلي أو إقليمي أو عالمي كي يتم فيه ذكر اسم قزمان أبو نسوان من خلال رسالة تهنئة أو تعزية، حتى في رحلاته الاستشفائية التي لم يكن يسمح لي بمرافقته فيها، ففي مثل هذه الحالة التي لا تسافر معه سوى أخته وأخيه وعمته وطبيبة كورية وممرضة فيتنامية، فقد كنت مضطرًّا إلى تحضير رسائل يُبْعث بها كالعادة لرؤساء الدول كلما عبرت طائرته الرئاسية أجواء هذا البلد أو ذاك.

الوزير الأول والوزراء جميعهم الذين يشاركون باسمه أو

ممثلين له في المحافل الدولية، أنا من يتكفل بكتابة خطبهم، أنا لا غيري، أسلمهم نصوص الرسائل وأتابع مهمة وصولها وكذا طريقة إلقائها في المؤتمر أو الندوة. أراقب قراءتها كلمة كلمة، حرفًا حرفًا، وبعد كل زيارة هذه الشخصية أو تلك أحرر تقريرًا مفصلاً أتعرض فيه إلى مستوى القراءة وعدد الأخطاء المرتكبة نحويًّا وصرفيًّا ونطقًا، وكم من مرة تم ذكر اسم الحاكم قزمان أو نسوان، فلا رسالة تقرأ نيابة عنه إلا ويتم ذكر اسمه سبع مرات على الأقل، هذه من التقاليد البروتوكولية في كتابة وقراءة رسائل مولاي. تعجبني جلسة الوزير الأول وهو يُستَقْبَل من قبل رئيس دولة شقيقة أو صديقة في صالون فاخر، يتبختر كالطاووس وهو يُستقبل رسميًّا كما تَعْرِض ذلك نشرة أخبار الثامنة على لسان الموفد الخاص للتليفزيون الوطني من قصر المؤتمرات، يدخل الوزير الأول الممثل الشخصي لمولاي قزمان أبو نسوان حاملاً ظرفًا من الحجم الكبير، يستعرضه أمام كاميرا القناة التليفزيون الوطنية التي تغطي زيارته بتفصيل، وبكل وقار ودبلوماسية عظيمة يقدم "الظرف" مغلقًا بإحكام وعليه شعار الرئاسة إلى حاكم الدولة المضيفة قائلاً: "هذه رسالة خطية من أخيكم صاحب الفخامة قزمان أبو نسوان يشرفني أن أنقلها إلى سيادتكم وأبلغكم في الوقت نفسه سلامه وتمنياته لشعبكم

الرخـاء والازدهـار". يعجبنـي هـذا المسـرح كثيـرًا، وأنـا الـذي سلمته الرسالة قبل سفره ببضـع سـاعات، الـوزير الأول يـخافني وكـذا رئيسـا مجلـس الشـورى السـفلي والعلـوي والـوزراء واحـدًا واحدًا يخرون ساجدين لشخصـي والسفراء أيضـا، أنـا من ينفخ الـروح فـي سـيدهم، سـيدنا جميعًـا الحـاكم قزمـان أبـو نسـوان وبالتالي أطيل في أعمار حُكمهم في الوقت نفسه.

كلما آمن النـاس برسـائلي واعتقدوا أن الحكم يسير علـى أحسن ما يرام، وأن مولاي قزمان أبو نسوان يمارس إدارة شؤون الدولة بشكل طبيعي، حتى وإن غاب عن الناس واختفى صوته ولـم يخـاطبهم منـذ سـبع سـنين، اقتنعـت أن العـرب والبربـر لا يساسـون إلا بالـدين، لـذا ترانـي لا أكتـب رسـالة أو خطابًـا أو برقيـة تهنئـة إلا واستشـهدت فيها بآيـة من كتـاب الله الحكيم أو بحـديث نبـوي شـريف واحـد علـى الأقل، فـي هـذا البلـد المسلم الأمين كل كتابـة بالعربيـة تحيل فـي رأس الجميـع علـى الـدين الحـق الـذي هـو الإسـلام، لـذلك تتحـول الكتابـة إلـى مقـدس، الحـرف يُعْبَد. كانت أمي لالـة جوهر بنت الظريف تغمدها الله برحمتـه كلما عثرت علـى قطعـة من صـحيفة أو ورقـة مكتوبـة بالعربيــة إلا ورفعتهــا مــن علــى الأرض ووضــعتها بشــق فــي الحـائط، حتـى أصـبح الحـائط الخـارجي لمنزلنـا شـبيهًا بحـائط المبكى من كثرة ما أدخل في شقوقه من أوراق مكتوبة بالعربية.

"كل ما يُكْتَبُ بالعربية يُعْبَد"، وكل كلام غَمُض على العامة فَهْمُه واتخذ له شكلاً دينيًّا يطاع فيه صاحب القول طاعة عمياء، لذا تراني أغرق في تضمين جميع رسائلي وخطبي باسم قزمان أبو نسوان كثيرًا من مهجور الكلام، وأبحث عن المُمات في اللغة، حتى يفغر الناس أفواههم فيما أقول على لسان من لا لسان له، أنا لسانك المقدس مولاي قزمان أبو نسوان.

هذه الغوغاء التي تتدفق في مسيرات بالشوارع والساحات والتي تحركها أياد خارجية أجنبية لا تريد أن تسمع خطبي، وأنا الذي صرفت سنينًا كثيرة في القواميس، أستعمل لقراءتها ثلاث نظارات طبية مختلفة، كل شكل حرف له نظارته، حتى لا أتعب عيني التي بهما أرى جواهر الكلام.

الغوغاء تقترب من القصر، تغرق الشوارع الرئيسية والأزقة المتفرعة عنها، هتافاتها المطالبة برفض الانتخابات وبالتغيير وبإسقاط النظام تصل مكتبي. أحكم غلق النوافذ جيدًا، لكن الأصوات عنيدة وثاقبة وقادرة على اختراق الزجاج السميك المزدوج والإسمنت المسلح عالي الجودة. أحاول أن أبحث عن كلمة في القواميس لتوصيف الوضع، لا أجد وأنا الذي يحفظ أجزاء كبيرة من قواميس متعددة!

هل يتجرأ رئيس الحجاب على إخبار مولاي قزمان أبو نسوان بما يحدث من حوله وضده؟ تساءلت هذا الصباح ومرارة

القهوة لا تزال في فمي، وإني لأراه متألمًا متحسرًا وهو صاحب القلب الحنون الذي قضى عشرين سنة في خدمة هذا الشعب غير الوفي، والذي لا يعترف بأي جميل. ثلاثة أرباع هذا الشعب من الكفار الجاحدين، كيف لهم أن يرفضوا أو يتمردوا على حاكم بنى لهم جامعًا بميزانية تفوق الأربعة مليارات دولار، بقاعة صلاة تتسع لنحو مئة وعشرين ألف مُصَلٍّ، جامع بأطول مئذنة بناها المسلمون على مدى خمسة عشر قرنا بطول يبلغ 265 مترًا، من يصعد إلى قمتها، وقد جربت ذلك ثلاث مرات في زيارة تفقدية صحبة وزير الشؤون الدينية والأوقاف ووزير البناء والتعمير ورئيس دار الإفتاء ورئيس المجلس الإسلامي الأعلى، لمتابعة وتيرة الأشغال والحث على الإسراع في الإنجاز، وأنتَ على قمة المئذنة تشعر أنك بين أيدي الله عز وجل مباشرة، من عند قمة هذه المئذنة المباركة ستُفْتَح باب الجنة يوم الدين، وسيكون مولاي قزمان أبو نسوان أول مَنْ يُنادى عليه ليدخل الجنة بعد النبي محمد والعشرة المبشرين بالجنة، وهذه هي قائمة المبشرين: محمد بن عبد الله ثم أبو بكر ثم عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان ثم علي بن أبي طالب ثم طلحة ثم الزبير ثم عبد الرحمن بن عوف ثم سعد بن أبي وقاص ثم سعيد بن زيد ثم أبو عبيد بن الجراح، ثم يأتي دور سيدي مولاي قزمان أبو نسوان.

لو أن هذه الغوغاء الخارجة عن الملة والدين والهائجة في مسيرات مجنونة سمعتْ هذا الحديث، واطلعت على هذه القائمة الربانية من الذين له السبق إلى الجنة لصرخت: "لا توجد امرأة من بين المبشرين بالجنة، هذه ليست عدالة".

هؤلاء زنادقة.

كلما ______

بعض الحكايات نسحبها معنا تحت جلدنا، لا يمكن نسيانها أو التنازل عن مكانها في الذاكرة لحكايات أخرى، لا يمكن لحكاية أن تنسي حكاية أخرى، كلما سكر بوب مارلي قليلاً تحركت فيه عاطفة غريبة، يتذكر قريته التي لم يعد إليها منذ أن غادرها، تتهاوى منازل قرانا جدارًا إثر جدار، وتظل قائمة سميكة في الذاكرة، ويبدأ في سرد حكاية عن خال أبيه:

"خالي أو بالأحرى خال أبي، الأخ غير الشقيق لجدتي، كنا ناديه نحن أيضًا بخالي، وكان يبدو سعيدًا حين نناديه كذلك، لأن ذلك يجعله يشعر بصغر عمره.

كان خالي يسكن على بعد يوم تقريبًا مشيًا على ظهر دابة من بيته إلى بيتنا، يزورنا ثلاث مرات في العام، زياراته كانت حدثًا ننتظرها نحن الصغار بشغف، رجل من حديث

آخر، ثرثار ولكن ثرثرته كانت تروق للجميع. بمجرد أن يصل تنزل صينية الشاي، وهو من يعد الشاي بيديه، فنان في تحضير الشاي، وحول مائدة الشاي تتفرع الحكايات والأحاديث والنقاشات، حديث يفتح على آخر، حكاية تؤدي إلى أخرى.

كان خالي يجيء راكبًا على حمار ضخم يشبه البغل، وكان أبي يقول لنا إنه حمار قبرصي. لم يبدل مركوبه يومًا، وكان يعطف على الحمار عطفًا لا يمكن تصوره، لا يجلس إلا إذا طلب أخته أي جدتي أن تسقي الحمار ماء وتطعمه علفًا، وكان يراقب كمية العلف وصفاء الماء بنفسه. كان خالي مستعدًّا للتنازل عن طعامه لصالح حماره، يعجبني فيه هذا الإحساس الراقي، في حين كان بعضهم يضحك من ذلك ويعدّه جنونًا أو سذاجة أو غباء.

صغيرًا، لم أكن قد تجاوزت السادسة إذ وجدتُني مولعًا بحكايات خالي، أتابع بكثير من الإمتاع تفاصيلها التي يختلط فيها كل شيء بكل شيء، تمر في حكاياته أسماء أناس لا أعرفهم وآخرين أسمع عنهم، وأسماء أخرى تشبه أسماء الملوك أو الأنبياء والمحاربين.

كان يتكلم العربية بلكنة أمازيغية، ينطق العربية الدارجة كما ينطقها الأجانب، وكنا نحب فيه هذه اللكنة، وكان هو

الآخر يصر على لكنته تلك، وفي كل مرة كانت جدتي، أي أخته، وهي تصحح نطق كلمة على لسانه، يرد عليها: "يا ابنة أمي أنت لا تفهمين أي شيء في ما أقول"، يسحب من كأسه جرعة شاي عميقة ثم يشرع في تحضير برّاد شاي جديد آخر.

كان فنانًا في تحضير الشاي، كل شيء بدقة، الحرص على الماء المغلي، وكمية السكر المطلوبة، وكمية الشاي ونوعيته التي يميزها بمجرد لمس حباته بين أصابعه: شاي بحبوب مكورة وآخر بحبوب مفتولة.

يحكي عن حرب فيتنام وعن مشاركته في الحرب العالمية الأولى على جبهة الشام ببيروت ولواء الإسكندرون ضد النازية. يتذكر أغاني الجبل بلبنان، وقد لا يتردد أن يقوم لأداء رقصة الدبكة اللبنانية، بعد أن ينادي جدتي يشبك ذراعه في ذراعها، فتشتمه بمحبة وتعيِّره بأنه "مراهق أو مجنون". وكان يضحك وهو يرقص الدبكة ويغني الميجانا الفلسطينية، وكان بعض الرجال والشباب يقومون للرقص معه. قبل أن ينهي الحديث عن الدروز في السويداء وعن طريقتهم في دفن موتاهم في قبور تشبه البيوت، يعرج للحديث عن عنزة الجار بكل التفاصيل، تلك العنزة التي اسمها رمادة التي أنجبت أربعة توائم، عن فرحة هذا الجار الذي تمنى لو أن زوجته

أيضًا أنجبت أربعة توائم مرة واحدة، وأراحته من وجع الرأس ومن الانتظار! من حكاية المعزة إلى الحكاية عن تهريب السكر اليوغسلافي إلى بلاد سلطان الغرب، ثم يشرع في ذكر قائمة أسماء المهربين واحدًا واحدًا، بالاسم الشخصي واسم الأب واسم الأم، وهم غالبيتهم من أسرته المباشرة، يذكرهم بتدقيق دون حرج أو تردد أو شعور بالذنب.

لقد أحببت هذا الرجل صاحب الحمار القبرصي.

لم يتزوج في حياته، ولكنه كان يقول إن عروسًا في سن العشرين تنتظره، وكانت جدتي حزينة لشيء واحد هو أن أخاها الوحيد هذا لم يتزوج. ومرات كانت تعلق على أحاديثه المتشعبة والمتقاطعة وحكاياته التي تبدأ ولا تنتهي قائلة: يا ابن أمي، لا بنت حواء تقبل بك زوجًا، النساء تريد رجلاً فحلاً للسرير لا لسانًا مدلوقًا حول موائد الشاي.

يسحب علبة التبغ الصفيحية الدائرية من تحت الوسادة التي يتكئ عليها، بحركة أوتوماتيكية يفتحها قطعتين، ينقر بالغطاء العلوي الفارغ بعض نقرات على القسم السفلي المليء بالتبغ، ثم يغرف منه قليلاً، وبطريقة آلية يلقي بما حمل في فمه، ثم يصمت، كأنما ينتظر صعود نشوة التبغ إلى قمة الدماغ أو انتظار مرور عاصفة الجملة التي أطلقتها أخته، أي جدتي، مرورها بسلام: "يا ابن أمي، لا بنت حواء تقبل بك زوجًا، النساء

تريد رجلاً فحلاً للسرير لا لسانًا مدلوقًا حول موائد الشاي". يتلذذ طعم التبغ الحار في فمه وينسى عبارة جدتي القاسية عليه.

تمتد حكايات خالي حتى الفجر، يَنْفَضُّ الجمع من حوله واحدًا إثر الآخر. بمجرد أن يغالب النعاس أحدهم في الحلقة التي من حوله ودون أن يزعج الآخرين ينسحب إلى ركن ثم يتمدد، أو يغادر الغرفة حاملاً نعليه في يديه، لا ينتعلهما حتى يبتعد قليلاً عن باب الغرفة كي لا يشوش لذة الحكاية على بقية السامعين، حين لا يبقى من الجمع أي أحد من حوله، يدرك أنها ساعة الفجر، يقوم يرتدي جلابته الحمراء، يبردع حماره القبرصي الذي بحجم البغل. وقبل أن يسحب دابته من رصنها خارج الإسطبل، يسمع صوت جدتي من خلفه تترجاه أن يظل، على الأقل لتناوب فنجان قهوة. يعتذر عن ذلك، لكن جدتي تصر فتلحق به حتى عتبة البيت وتقسم أن يرشف من قهوتها ولو رشفتين. يأخذ الفنجان من يدها، يشرب ما فيه في ثلاث رشفات كبيرة، يقبل رأسها ثم يخاطب حماره قائلاً: الطريق يا بوريكو. ثم ينتبه إلى أخته قائلاً: سأعود في العيد القادم.

يركب حماره ويرحل رفقة حكاياته التي لا تنتهي.

خالي هذا علمني كم للحكاية من سلطة، وعلمني من كانوا يحيطون به أن الاستماع فن وفضيلة قلّ من يعرف كيف يستمتع بها.

يقص بوب مارلي حكاية خاله أو خال أبيه على الأصح وهو يتصفح الجريدة بعنوان كبير: "الشعب يرفض الانتخابات في ظل حكم بقايا العصابات".

ـــــــــ حين

حين أصبح الجامع الأكبر جاهزًا تقريبًا، وجيء بالعشب من المكسيك وكل ما له علاقة بالأثاث من إيطاليا، والنخل الكبير الجاهز من إسبانيا، وبدأ الفُرْسُ في تركيب أكبر سجاد نسج لمثل هذا المكان المقدس منذ بداية التاريخ الإسلامي، زرت الجامع للتمتع بروعة الأشكال الجميلة المرسومة على السجاد. وأنا أتأمل كل هذا الإبداع تذكرت سجاد مدينة بايو Bayeux التاريخية التي يفتخر بها الفرنسيون وقد سجلوها ضمن لائحة التراث العالمي المادي، وضحكت وقد بدت لي مثل خرقة تافهة أمام هذا البهاء وهذه الروعة، يا الله! سنُعَلِّمُ فرنسا وعموم بلاد الروم ما معنى السجاد المثير! وأنا أضحك من هذه المقارنة التي دارت في رأسي بين سجاد الجامع الأعظم بالمدخل الشرقي لإيكوزيوم وسجاد بايو بنورماديا

بفرنسا، تبادرت إلى ذهني فكرة عظيمة، سجلتها على الفور على قطعة ورق أخرجتها من جيبي، الأفكار المثيرة والعبقرية يجب تسجيلها لأن لا ثقة بالذاكرة، قد تطير الفكرة من الرأس لترحل بعيدًا كما تفعل الطيور المهاجرة، وربما سيسرقها أحدهم.

عدت على الفور إلى مكتبي، دخلته مسرعًا كعادتي من باب سلم الخدم وعمال النظافة حتى لا أمشي على سجاد الرواق الرئاسي، فيتبعني ابن تاشفين ليخنقني معتقدًا أنني يحيى بن خلدون أو متآمر يعتقد أنني عبد الحميد الكاتب. أخرجت قطعة الورق من جيبي والتي سجلت عليها الفكرة العظيمة، أسمع نقرات الشوكة الفضية على الصحن الخزفي في المكتب المجاور، إنها ساعة غداء روبيسبيير، وأفكر في زوجته فازية كنوز المذيعة على القناة الثالثة والتي ماتت ولم تمت!

قررت أن أدبج رسالة، على الفور، تتضمن الفكرة العظيمة التي راودتني وأنا أزور مرافق المسجد الأعظم، وأرسلها إلى مولاي قزمان أبو نسوان المبشّر الحادي عشر بالجنة للنظر فيها، مع رجائي أن يوافق عليها:

على رأس الورقة كتبت التاريخ الهجري؛ إذ لا داعي لكتابته بالميلادي، فنحن أمام حدث مرتبط بالجامع الأعظم.

دارت في رأسي واحدة من رسائل عبد الحميد الكاتب، وهي رسالته إلى أهله، لكنني استبعدتها لأنها تذكرني بالهزيمة وبلحظات هروبه صحبة الخليفة مروان بن محمد قبل اغتيالهما في صعيد مصر قادمين من دمشق، ثم سقطت على رسالته للكتّاب، واستلهمت منها تحميداته العظيمة ونسجت على منوالها رسالتي هذه:

"أما بعد مولاي قزمان أبو نسوان، حفظكم الله وحاطكم ووفقكم وأشدكم، فإن الله عز وجل جعل بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين يجيء الرؤساء المكرمون، أنت الخير المحمود، خصال الفضل، الحليم في موضع الحلم، العفاف والعدل والإنصاف، تفقُّهٌ في الدين وبصم كتاب الله الحكيم، معرفة بأيام العرب والبربر وعموم المسلمين، راغب بنفسك عن المطامع وسفساف الأمور ومحارقها، المحمدة لك، الرخاء والشدة والحرمان والمؤاساة والإحسان والسراء والضراء، فنعم السيمة هذه التي وسمتَ بها، أنتَ الذي على الضعيف رفيقًا وللمظلوم منصفًا. إن الخلق عيال الله وأحبهم إليه أرفقهم بعياله وأنت صاحب العدل، ميزان الذهب، القسطاس، للأشراف مكرم وللفيء موفر وللبلاد عامر وللرعية متألف وعن أذاهم متخلف. أنت في مجلسك متواضع حليم وفي سجلات خراجك واستقصاء حقوقك رفيق وحليم،

وقد أدركتم منذ عشرين حولاً أن سائس البهيمة إذا كان بصيرًا بسياستها التمس معرفة أخلاقها، فإن كانت رموحًا لم يهجها إذا ركبها، وإن كانت شبوبًا أتقاها من بين يديها وإن خاف منها شرودًا توقاها من ناحية رأسها، وإن كانت حروفًا قمع برفق هواها في طرقها، فإن استمرت عطفها يسيرًا فيسلس له قيادها وفي هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعاملهم وجربهم وداخلهم، وأنت خير المجربين يا مبشرًا بالجنة بعد العشرة الأولين.

أما بعد، مولاي قزمان أبو نسوان زرت اليوم صرحكم العالي الذي لا مثيل له في البرية، الموسوم بالجامع الأعظم. وبعد تجوالنا في الداخل المبارك المنير من قاعة الصلاة الكبرى المزينة بالثريات الذهبية المصنوعة في إسطنبول، والتي تسع لأزيد من مئة وعشرين ألف مُصَلٍّ، هذه الآلاف المؤلفة من المصلين المؤمنين جميعهم سيسجدون لله ولك خمس مرات في اليوم ويدعون لك بدوام السؤدد ومدد العمر، وبيدي هذه لمست يا مولاي أطراف الخشب النبيل المصنوع منه المنبر النادر شكلاً وتزويقًا، وقرأت الفاتحة ثلاث مرات خشوعًا لجمال هندسته، ومشيت تحت الأقواس العامرة بالإيمان وبظلك الذي يعلو فوق كل ظل إلا ظل الله ورسوله العظيم وقرأت سورة الفلق، ومشيت في البساتين المحيطة بنخيلها وأشجارها المثمرة وعشبها الأخضر

ومياهها الصاعدة من نافورات في شكل أسود وفهود، هي من حروف الآيات والأحاديث النبوية الشريفة، وقرأت سورة العصر، ووقفت على المدرج المخصص لنزول المروحيات وقرأت "رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي..."، واندهشت لجمال الخزف ولآيات الذكر الحكيم المكتوبة بخط نسخي وديواني متقابلين ومتعانقين على الجدران في الداخل والخارج، فدهشت وقلت: يا سبحان الله. ومن بوابة جامعكم الأعظم يا سيدي شاهدت البحر الذي على بُعْدِ ذراع واحد، ثم قلت في نفسي: خلف هذا البحر الأزرق حيث الموج يسبح لك صبحًا وعشية، خلفه يقيم النصارى والروم والمجوس الذين يراقبون صرحكم العظيم هذا من هناك وهم صاغرون، باهتون، فاغرون وقد أصابهم الهلع مما صنعت يداك وأمر عقلك المنير. بعد أيام سيسمع هؤلاء النصارى والروم والمجوس رفع أول أذان من هنا من هذه المئذنة التي فاقت في علوها كل علو، فأتصورهم يا مولاي يرتجفون وهم مدركون أنّا قادمون، فالفتوحات الإسلامية لا تزال قائمة، واستعادة مجد الأندلس هي مطمحك يا حفيد موسى بن نصير وعقبة بن نافع.

وأنا أجوب هذا المجد التليد الذي من أثرك العظيم يا مولاي قزمان أبو نسوان، قلت في نفسي: الأعمار بيد الله، وأنت لك عمرك ورقابنا وأعمارنا هدية وفدية لك إن ترغب

فيها فهي لك. قلت يا سيدي ومولاي: لماذا لا تختار لك ضريحًا على جنبات هذا الصرح كي تظل تحرسه وتحرسنا من النصارى والروم والمجوس وأعوانهم من شياطين البلد من أعداء الدين؟ الأعمار بيد الله يا طويل العمر، لكن مكانًا كهذا لا يستحق أن يرقد فيه إلا أنت، أنت وحدك، محاطًا بالآيات والبساتين والظلال الوارفة والأذان.

وتقبل مني يا طويل العمر بليغ السماع والطاعة".

جميع رسائلي الشخصية الموجهة إلى مولاي قزمان أبو نسوان أكتبها بخط يدي، بخط أندلسي مثير، حيث حرف الفاء يكتب بنقطة في الأسفل، والقاف بنقطة واحدة في الأعلى. فأنا خطاط ماهر درست فن الكاليغرافيا، أعرف أن رسم حرف في كلمة بطريقة ما يعطيها معنى آخر غير المعنى الدارج. الخطاط يمنح الكلمة الواحدة معنيين معنى للعامة ومعنى للخاصة، وأنا الذي شغفت بأعمال الواسطي وابن مقلة وابن البواب والبوصيري صاحب البردة، ولا زلت أحلم بإقامة معرض لبعض لوحاتي في الخط، وأتمنى أن أحظى بتنظيم ذلك في جناح المعارض بجامع مولاي الأعظم في يوم حفل تدشينه.

أعدت قراءة الرسالة ثلاث مرات، أعدت كتابتها مرة أخرى بعد أن أضفت إليها بعض كلمات التحميد والتبريك ورتقتها

ببعض الفواصل والنقاط، ثم وضعتها في ظرف خاص ممهور بشعار الرياسة. أغلقت الظرف بخيط حريري يدور حول دبوس شمعي صغير، وحين عزمت أن أبعثها إلى مولاي قزمان أبو نسوان عبر رئيس الحجاب، عدت وفتحت الظرف ثانية وأخرجت الرسالة ثم قرأتها، تأملتها مليًّا، ومزقتها على الفور إربًا إربًا، وأخذت أدور كالمجنون في مكتبي، قابضًا على رأسي، قائلاً ومعاتبًا نفسي الغبية بصوت عال: "من يقرأ هذه الرسالة سيعتقد فورًا أنني أفكر في موت مولاي قزمان أبو نسوان، ما هكذا الوفاء، فمولاي قزمان أبو نسوان لا يموت حتى ولو أن الموت حق. علي ألا أفكر في ذلك مطلقًا، فمولاي يكره الموت والحديث عنه. كيف لي أن أتجرأ وأُذَكِّرُهُ بالقبر وهو في قصره العامر، حتى وإن كان على كرسي متحرك، إلا أنه وفي كل الحالات كرسي الرياسة، والشعب يحبه كما يحب الله، حتى وإن كانت هذه المسيرات قد عكرت صفو الخاطر لديه، إلا أنني متيقن أنها سحابة صيف ستنقضي، ويعود الصحو وتعود الأيام الجميلة، إذن عليّ أن ألغي من رأسي فكرة تخصيص مكان لضريحه في الجامع الأكبر، هذه غلطة كبيرة لم أرتكب مثلها منذ جئت هذا الديوان وقد أشرفت على العشرين سنة فيه".

فُتح باب المكتب وإذ برئيس دورية الحراسة الليلة قائلاً: "خيرًا السي عمار، هل أطلب لك طبيب الرياسة المناوب؟ لقد

سمعناك تصرخ ونحن في الطابق الأرضي. لقد اجتمع بعض الناس في الحي المولوي إذ سمعوا صوتك حتى اعتقدوا أن الحاكم قد حصل له لا سامح الله شرٌّ".

انتبهت فإذا بالعرق يتصبب من جسدي، وقطع الرسالة الممزقة متناثرة على الموكيت الأخضر، وأنا واقف في الزاوية أرتجف. لم يتأخر الطبيب في الحضور، راقب ضغطي، وأعطاني حقنة مهدئة، ثم غادر المكان بعد أن استعدت السيطرة قليلاً على جسدي.

من هنا أرى المئذنة العالية.

ــــــــــ الجماهير

الجماهير الغفيرة أغرقت ساحتي البريد المركزي وموريس أودان والشوارع المحيطة بهما، كشارع العربي بن مهيدي وديدوش مراد وزيروت يوسف وحسيبة بن بوعلي وعبان رمضان والدكتور سعدان ومحمد الخامس، وصولاً إلى شارع كريم بلقاسم في أعالي تيلملي. الشعارات المرفوعة هي نفسها كما في الجمعات السابقة "إسقاط النظام" و"رحيل جميع رموز النظام" و"محاكمة الفاسدين" "كليتوا البلاد يا السراقين".

كان بوب مارلي والدا المولود يتقدمان بصعوبة وسط الأمواج البشرية الكبيرة، فإذا هما يفاجآن بمنظر غريب ومثير، عروسان جاءا لاحتفال بعرسهما وسط التظاهرة. لقد اختارا المتظاهرين شهودًا على يومهم هذا ومشاركين في أفراحه. العروسة مبتسمة أنيقة في لباسها الأبيض الطويل

تجـر أطرافـه علـى الإسـفلت، تحمـل باقـة ورد بيـدها اليمنـى وباليسرى ترفـع طرف لباسها قليلاً. وأما العروس فقد بدا فـي دوخـة الفرح يرقص كالطفل فـي طقمه الأسود الجديد، سعيدًا بكـل هـذا الجمهـور الـذي يحتفـل معـه بيومـه الكبيـر هـذا. العروسـان كانـا محـاطين بمجموعـة مـن أصـدقائهما وأفـراد عائلتيهمـا، كما يبـدو من سلوك بعضـهم ومن طريقـة حـديث بعضـهم لبعض، نساء يزغردن احتفاء بالعروس والعريس وهن واقفـات فـي بلكونـات الشـقق المحيطـة بسـاحة مـوريس أودان، ورجـال ونسـاء يرقصـون علـى الأرصـفة، وشـعارات إسـقاط النظـام تمتـزج بأغـاني الأعـراس ذات الطـابع الفلكلـوري العاصـمي والقبـائلي والـوهراني والشـاوي والترقـي، اخـتلاط الطبوع الموسيقية كاختلاط أصول هؤلاء المتظاهرين: "خاوة.. خـاوة". بصـعوبة فـتح بـوب مـارلي للـدا المولـود طريقًـا بـين المتظاهرين وتسللا في اتجاه مربع موكب العروسين. بصعوبة تمكنّا من الوصول، تناول بوب مارلي آلته الموسيقية وبدأ فـي العزف، سكت الجميع، وبعد برهـة صـعد صـوته عاليًا مؤديًا واحدة من أجمل أغاني بوب مـارلي. كان متأكدا أن كثيرًا من الشباب الحاضـر يحفظها، وبالفعل دوت ساحة موريس أودان بصوت واحد مرددة كلمات الأغنية خلف بوب مـارلي المهدي أخريف.

وأنا أحاول أن أقرأ فرحة العروسين العارمة، تذكرت وأنا واقف وسط حشود المتظاهرين أعزف وأغني للعروسين، ليلةَ عرس أخي الأكبر التيفاشي والذي تم التحضير له بدقة وعناية فائقتين، فالعروس التي اختارها أخي ليست أي امرأة، فهي تشتغل طبيبة بيطرية من مدينة مليانة، وهي من أسرة بورجوازية عريقة معروفة بتجارة النسيج وتربية الخيل والنحل، فصيل نحل غريب يعطي عسلاً أصفر اللون يستعمل في استطباب أمراض الجلد والعجز الجنسي والأرق. كلما جاء الحديث عن مدينة مليانة ذكر أخي التيفاشي بكثير من التباهي شخصًا اسمه حاج حمو عبد القادر، الذي يقول عنه إنه كان أديبًا كاتبًا باللغة الفرنسية، ويُذكِّرُ من يستمع إليه بعنوان أحد كتبه وهو "زهرة زوجة المنجمي". كان أخي مولعًا بالكتب، يقرأ كثيرًا ويتحدث قليلاً، يعمل مساعد مهندس زراعي في مدينة صغيرة قريبة من وهران، اسمها ريو دي صالادو، وقد عرب اسمها بحلول الاستقلال وأصبحت تسمى "المالح"، كلما عاد أخر التيفاشي إلى البيت العائلي، يحدث ذلك مرة كل أسبوع أي يومي السبت والأحد، كنت أشتم فيه رائحة غريبة ومثيرة حتى سمعت أبي يحدث أمي بصوت خافت قائلاً: إنه يشرب "الشراب". لم أفهم معنى "الشراب" لكن أختي سعيدة أفهمتي أن الشراب هو الخمر. ومنذ ذلك اليوم

أحببت أخي التيفاشي كثيرًا لأنه يقوم بما لم يستطع أحد في أسرتنا القيام به: "قراءة الكتب بالفرنسية" و"شرب الشراب"، وتمنيت أن أكون مثله، لذلك قررت أنا الآخر أن أرحل ذات يوم عن هذه الدشرة الميتة إلى مدينة بعيدة تنتج "شرابًا" كثيرًا لأذوق منه كما يفعل أخي. كنت أتساءل ما معنى "السَّكْرَة" التي سمعت أختي تحاول أن تفسرها لأمي بصوت خافت في جلسة خاصة، أمي كانت مقتنعة أن "السَّكْرَة" هي حالة من الجنون يصاب بها الإنسان، ولا علاقة لذلك بالشراب أبدًا.

كانت سيارة خالي رابح أورابح من نوع بيجو 404 أول سيارة تصل حتى بيتنا في هذه الدشرة المعزولة الموجودة على هذه الربوة المنسية، حيث الطريق إليها عبارة عن ممر ضيق وغير معبد، به كثير من الحصى والحفر والنباتات البرية، ورغم ذلك كان خالي يتقدم بسيارته بهدوء، مرفقه الأيسر يظهر من النافذة حيث أنزل الزجاج، يسبقه عمي سليمان وبيده فأس محاولاً ردم الحفر العميقة ورفع بعض الأحجار عن الطريق وتشذيب الحشائش، حتى تستطيع السيارة أن تتقدم أكثر. وبالفعل وبفضل ذكاء عمي سليمان فقد وصلت السيارة حتى باب بيتنا. لم أكن أتوقع أبدًا أن تصل يومًا ما سيارة إلى هذا المكان، سيارة مصنوعة في عاصمة بلاد الروم باريس التي يقال إنها عاصمة فرنسا، حيث الجميع هناك

يتكلم الفرنسية الصغار والكبار على حد سواء! أسرعت نحو السيارة فرحًا ومددت يدي من خارجها عبر الزجاج النازل نحو الكلاكسون وضغطت عليه، فأعطى صوتًا عاليًا مما جعل خالي رابح أورابح ينهرني. انطفأت في داخلي جمرة الفرحة، وسمعت الناس تتحدث وهي تدور حول السيارة التي استطاعت أن تقوم بالمستحيل، فتصل إلى هذا المكان الذي لا وجود له في الجغرافيا: لقد اشتراها من فرنسا التي قضى فيها أزيد من ربع قرن في حفر الخنادق وبناء العمارات ومد الطرق، ومن يومها كرهت خالي رابح أورابح، لاحقًا وبعد شهور قليلة من عرس أخي، شعرت بارتياح إذ جاء خبر موته في حادث اصطدام سيارته بحافة نقل وهو على متنها.

كانت "سَكْرَة" أخي الأكبر ورائحة الشراب التي فيه إضافة إلى تصرف خالي رابح أورابح هو الذي جعلني أقرر مغادرة القرية، أن أجيء إلى العاصمة، أن أجرب أنا الآخر حظي ربما سأقتني ذات يوم سيارة أجمل من سيارته وأعود بها إلى دشرتي لأحتفل بعرسي هناك، لكن الحقيقة أنني لم أكن أفكر في العودة إلى قريتي لا لكي أفرح فيها ولا لكي أموت فيها.

كان عرس أخي التيفاشي بهيجًا على الرغم من الحزن الذي شعرت به، فهذه العروس طبيبة الحيوانات ستصادر مني أخي نهائيًّا، حتى إنني استسلمت للنوم قبل نهاية الحفل

متخذًا من بردعة حمار وجدتها بالقرب من مجلسي وسادة، في تلك الليلة أحيت فرقة فلكلوية الحفل في المراح وقد جاءت من مدينة المدية. كان الجميع يتابع حركات الراقصة بشهية واندهاش وهي تتلوى في لباس شفاف عليه عدس الزواق اللامع، حركاتها مثيرة وجنسية وهو ما جعل بعض الشباب يطلقون صفيرًا وصراخًا تجاوبًا مع رقصها. في صباح اليوم التالي للعرس وجدْتُني ممددًا فوق بردعة الحمار نائمًا، وأبي يوقظني لأنه بحاجة إلى البردعة، فهذه ساعة الذهاب للتسوق على الحمار. قمت مزعجًا قليلاً لأني لم أستطع مشاهدة الحفل خاصة حركات الراقصة حتى آخر الحفل. غسلت وجهي بماء بارد، وانطلقت في اتجاه الطريق الرئيسي، وقفت على قارعته بعض الوقت، جاءت شاحنة نقل كبيرة أشرت إلى سائقها، فتوقف، صعدت بجواره، فقال لي: أين بهذه الهربة الصباحية المبكرة؟ قلت له: إلى آلجي، وكانت تلك هي وجهته.

في الحقيقة أنا لم أغادر دشرتنا بهذه السرعة لأن خالي أغضبني إذ نهرني حين ضغطت على الزمور، ولا بحثًا عن "سَكْرة" مثل أخي الأكبر التيفاشي، لكني غادرتها وعلى وجه السرعة لأنني حين سلّمت على زوجة أخي الطبيبة البيطرية ونظرت إليها، شعرت بشيء غريب في عينيها، وأحسست

بأمر ما قد حدث بداخلي، وكأنني حيوان أليف بين يديها. ودرءًا لأي فضيحة قررت أن أختفي وكنت سعيدًا بذلك. حين وصلت العاصمة وجدتها كما كنت أتصورها، متاهة وغابة يعيش فيها الناس، يأكلون بعضهم بعضًا بالتراضي وبالصمت، إلا أن وجودي في المخفر خطأً في أول ليلة أقضيها بهذه المدينة وتعرفي إلى هذا الرجل الذي اقتيد هو الآخر من شارع طنجة إلى هنا قد غير مجرى حياتي نهائيًّا.

كنت أفكر في شريط حياتي هذا وأنا أعزف على القيثارة تارة وأردد مع المتظاهرين شعارات سياسية ضد النظام، وها هي مدينة الجزائر العاصمة التي استقبلتني وهي في صورة غابة للوحوش الآدمية، تتحول اليوم بهذه الحشود المليئة بالعزم إلى مدينة القلوب المتحابة المتآزرة.

______ في

في سنوات المدرسة الابتدائية كنت تلميذًا فاشلاً في الرسم والعلوم الطبيعية اللتين كنت أكرههما حد القرف. كنت أحسن رسم شيئين فقط ولا أزال حتى اليوم كذلك وهما: السمكة والقطة، لماذا السمكة والقطة؟ لست أدري، لا أعرف رسم لا شجرة ولا طاولة ولا دجاجة، وكنت أشعر بالملل في حصة العلوم الحية إذ أخفق دائمًا في رسم الأمعاء والكبد والقلب والفم والأسنان والأصابع، وكنت متفوقًا في مادتي الموسيقى والحساب.

وفي العطلة الصيفية كنت لا أتخلف عن أي عرس يقام في قريتنا أو في القرى المجاورة، أحضره متطفلاً. ونظرًا إلى وجودي في جميع الأعراس وتصرفي بشكل عفوي وواثق في منزل الحفل، كان أهل العريس يعتبرونني من أهل العروسة

وأهل العروسة يعدونني من أقارب العريس. ما كان يشدني إلى هذه الأعراس هو ولعي بغناء الراي البدوي الذي كان فاكهة السهرات، بكلماته الجريئة التي لا تؤمن بالممنوع. كلمات الأغاني تصرح ولا تلمّح. وكنت معجبًا أيضًا بالراقصات اللواتي ترافقن هذه الفرق، يرقصن بحركات جنسية مثيرة، وكان الحاضرون من الرجال يلقون للراقصة الأوراق النقدية، وبعضهم يغرسها في حمالة النهد، وفي الحزام أو في مربط الشعر. كنت أنتشي وأنا أتابع هذه المشاهد، حتى إنني أصبحت أعرف أسماء شيوخ الراي جميعهم والراقصات أيضًا، بل أصبحت بعض العائلات تكلفني بالاتصال بهذه الفرقة أو تلك لدعوتها إلى إحياء حفل زفاف ابن أو قريب لهم. وفي فترة وجيزة أصبحت عارفًا بمستحقات الفرق الموسيقية في الأنحاء، لكل سعره، ثم لاحقًا تحولت إلى عضو مشرف على التنظيم والاتصال ولم يتجاوز عمري الخامسة عشرة، حدث ذلك دون ترتيب للأمر، وفي جو هذه الحفلات الشعبية المفتوحة شربتُ الخمر لأول مرة، الجرعة الأولى شربتها من فم الراقصة التي كانت تعب من القنينة مباشرة، ثم تفرغ ما في فمها في فمي فأنتشي نشوة مزدوجة، نشوة الخمر ونشوة الشفاه، الفم للفم، هي المرة الوحيدة التي شربت فيها النبيذ قبل وصولي إلى إيكوزيوم، وكان يثيرني في الراقصة عطرها البسيط ورائحة تنبعث من

جسدها المثير، مزيج ما بين رائحة العرق ورائحة الصابون البلدي المصنوع من الزيتون وشقائق النعمان، ثم ما فتئت أن شرعت في التجارة غير الشرعية للمشروبات الكحولية، حيث كنت أنتقل عشية أي حفل إلى مدينة المدية لأشتري كمية لا بأس بها من القناني، وفي سهرة اليوم التالي أبيعها خفية لجمهور العرس. وقد استطعت أن أجمع كثيرًا من المال، لولا أن تمت الوشاية بي لفرقة الدرك بالقرية المركزية، حيث فاجأتني ذات عرس وفي حوزتي مجموعة من قناني النبيذ والبيرة والويسكي، واقتادوني إلى ثكنتهم، ولكن أحد الدركيين تعرف إليّ بمجرد أن رآني إذ كان صديقًا لأخي الأكبر التيفاشي، فأمر بإطلاق سراحي دون حتى حجز سلعتي، بل طلب من أحدهم مرافقتي بالسيارة حتى بيتنا. كنت سعيدًا بهذا الانتصار ولكني وجدت نفسي في ورطة كبيرة، إذ كيف لي أن أبرر ما أحمله من هذا المشروب الحرام، وأدخله لمنزل يسكنه أبي الذي حفظت عليه "سورة البقرة" وأمي وأخواتي، فما كان علي سوى أن تسللت مباشرة إلى بيت جدتي لقضاء ليلتي عندها. لم تعر هذه الأخيرة أي اهتمام لما في الحقيبتين الجلديتين اللتين كنت أحملهما على ظهري.

كنت لم أبلغ الخامسة عشرة بعد، حتى أصبحت آخذ الميكروفون لأغني في الأعراس، أفتتح الحفل بأغاني أؤديها

بالعربية وبالأمازيغية لأحمد وهبي وحميد الزاهر وسليم هلالي وموريس المديوني والشيخة الريميتي والشيخ الحسناوي وإيدير وغيرهم، مع ذلك ومع نهاية العطلة الصيفية وتلبية لرغبة أمي كنت أعود إلى مدرستي مجبرًا.

كانت أمي امرأة جميلة، أنيقة، مترددة، خجولة، تتكلم بصوت دافئ ولكنه خافت، لا ترفع عينيها في أحد سواي حين تكلمه. لا تطلب شيئًا، فهي التي تقدم للآخرين الأشياء. لم أشاهدها يومًا نائمة على فراش إلا يوم مرضت. كانت تستيقظ قبل الآخرين، تبدأ شغل البيت قبل أن ينهض البقية من الأخوات والعمات والإخوان والجيران، ترقص بحياء مثير في حفلات العائلة، أمي هي أول امرأة خطفت انتباهي، خطفت عقلي، المرأة التي أحببتها، كنت أغار عليها من أبي، ومن أخي الأكبر التيفاشي الذي تحبه أكثر مني، أمي التي اسمها جوهر في الأوراق الثبوتية الرسمية ومريم عند العامة من أفراد الأسرة والأهل والأقارب. أعجبني اختفاؤها في اسمين، فاسم واحد لا يكفيها، لا يكفي لنداء هذا الجمال ولتوصيف هذه الفتنة، على الرغم من عمره المتقدم لم تُتْعِبها الأيام ولا سنوات الثورة ولا عدد الولادات التي قاربت العشرين بطنًا.

أمي، كانت عشيقتي الأولى.

______ اسمي

اسمي الحقيقي إيدير أوزلغان، الجميع يناديني بالدّا المولود. صغيرًا كنت أشتغل عند السيدة دانيال ليبار في محل بيع الزهور في الوقت خارج المدرسي. أقوم بترتيب الزهور، وتوصيل الباقات إلى أصحابها في منازلهم، أو في صالونات الفنادق والاجتماعات. وكنت سعيدًا، لأن من يشتغل في بيع الزهور أيام الحرب فهو أكبر مقاوم للخراب النفسي والجسدي والطبيعي، ثم أصبحت جزءًا من أسرتها. جربت المقاومةَ بالورد مرتين في حياتي، المقاومة العجيبة، الأولى في الأيام الأخيرة لحرب التحرير، حيث كنت لا أزال تلميذًا في الابتدائي، وكنت ألاحظ كيف يصر الناس على حب الحياة من خلال تبادل باقات الورد كهدايا بمناسبة أعياد الميلاد والأفراح العائلية، كالأعراس والخطوبة والمواليد وزيارة

المرضى في المستشفيات، والنجاح في امتحانات السيزيام والبروفي والباكالوريا. كانت السيدة دانيال ليبار مناضلة يسارية تحب الجزائريين وتقف معهم ضد الاستعمار الفرنسي، كنت أستغرب كيف تقف امرأة جميلة ضد عسكر بلدها وتناصر العرب والبربر؟

والثانية حين حلت لعنة العشرية السوداء، تذكرت موقف دانيال ليبار وإصرارها على الإبقاء على المحل مفتوحًا. كانت تقول وتؤكد لزبائنها: إن بيع الورود زمن الحرب هو أكبر مقاومة ضد أعداء الجمال والحب والحرية والحداثة، وعلى سنّتها أبقيتُ على المحل مفتوحًا لمقاومة الخراب الذي أصاب النفوس.

كم من رسائل التهديد وصلتني معتبرة أن بيع الورد هو من الثقافة الغربية الصليبية واليهودية والشيوعية، وكم من الفتاوى التي تلقيتها تدعو إلى تحريم إهداء باقة ورد للمريض، لأن ذلك أيضًا من الثقافة المسيحية واليهودية التي تريد أن تطمس ديننا وهويتنا والتي يجب القضاء عليها. وصبرتُ وتحديتُ لا لأنني كنت أريد أن أقاوم ولكن لأني، وقبل كل شيء، كنت أحب منظر الورد، فلا أجد لحياتي من معنى دون منظر الورود معروضة على الرفوف وهي تزين الأرصفة في الصباح. كنت أرى الناس يمرون بجوار المحل عابسين،

لكن بمجرد رؤيتهم منظر الورود على الرفوف في الأصص الفخارية والبلاستيكية فتتغير ملامح وجوههم، وترتسم في عيونهم ابتسامة أمل.

كنا مجموعة لا تتعدى أصابع اليد الواحدة من بائعي الورود في إيكوزيوم كلها نمثل تحديًا رمزيًّا ضد زارعي الرعب والدم في المدينة. كنتُ أنتصر على الخوف كل يوم بملامسة الورد صباحًا، أن تلمس وردة أو تحدق النظر إليها فكأنما شحنت نفسك بطاقة خارقة للعادة، قادرة على هزيمة كل أعداء الحياة. الورد قوي في شفافيته وهشاشته. وكنت أيضًا أقاوم بعادة قراءة بعض الشعر ليلاً، فأنا لا أنام إلا إذا سمعت بعض الموسيقى وقرأت بعض مقاطع شعرية عالمية. قد يبدو لكم هذا الموقف عبثيًّا، ولكنها الحقيقة الصادقة التي عشتها، تمنحك بعض قصائد ناظم حكمت وجاك بريفير وروني شار وجمال عمراني وعبد اللطيف اللعبي قوة خارقة لمواجهة أي انهيار داخلي أو خارجي قد يهددك.

الورد والشعر عاملان ضد الانتحار.

لم تغادر دانييل ليبار العاصمة بعد الاستقلال على الرغم من موجة العنف والاغتيالات التي طالت الجزائريين ذوي الأصول الأوروبية. اختارت أن تظل مع هؤلاء الذين دافعت عنهم ومعهم، وكان عزاؤها أن ظلت على علاقة متينة مع

سيدة تدعى مريم بان شاعرة ورسامة وهي صديقتها الأكثر قربًا وهي الأخرى فضلت البقاء في المدينة.

"الجزائر تسع أبناءها جميعًا"، كانت تقول لي ذلك وتمنحني بعض النقود للتبرع بها لإمام مسجد الحي الذي يريد أن يغير سجاد قاعة الصلاة.

قبل رحيل السيدة دانيال ليبار بأيام قليلة، سحبتني من ذراعي ذات صباح قائلة: "الطقس جميل، تعال معي سنذهب في جولة بأعالي إيكوزيوم. لقد اشتقت للمشي في حي الأبيار وبن عكنون". وبالفعل مشينا على الأقدام من حي تليملي إلى الأبيار ثم بن عكنون. كانت تتكلم كثيرًا عن جمال العاصمة تارة وعن أصدقائها وصديقاتها الذين رحلوا، وقبل العودة عرجنا على مكتب موثق، وقبل أن ندخله قالت لي: "لقد قررت أن أتنازل لك عن محل بيع الورد، فأنت الوحيد الذي يعرف قَدْر المقاومة بالورد، المقاومة الناعمة الشرسة". شعرت بحرج وسعادة في الوقت نفسه، ولكني وأنا أوقع على الوثيقة قدام الموثق انتابني حزن غريب، شعرت وكأن ساعة السيدة دانيال ليبار قد اقتربت، وأحسست أن غيابها سيتركني في العراء الروحي الكامل، وأدركت لحظتها أنني شاب مقطوع من شجرة. من أين جئت؟ كيف اقتحمتُ حياةَ هذه السيدة التي ظللت نَفَسي منذ أزيد من خمس عشرة سنة؟

لا أدري!

وها أنا ذا مرة أخرى في معركة أخرى، أحمل كل يوم جمعة باقة كبيرة من الورد لأوزعها على المتظاهرات. الثورة تحتاج إلى أن تنمو داخل الإصرار والتفاؤل والفرح. أعتقد أن الجزائري لا يعيش فقط أزمة اقتصادية وسياسية، إنه يعيش في بلد يفتقد الفرحَ ويخلو من الفضاءات التي تثير فيه حب الحياة والدفاع عنها.

اليوم نعيش ثورة الابتسام، ولا تكتمل البسمة إلا بالوردة.

حين تعرفت إلى بوب مارلي، كان ذلك منذ عشر سنوات أو أكثر، كان يزورني بالمحل أقرأ له بعض قصائدي فيستمع إليّ كالراهب، لا يتحرك، حتى سيجارته لا يسحبها من بين شفتيه، رمادها يساقط على سرواله فلا يأبه لذلك. مع نهاية القراءة كان يعلق بكلمة واحدة: "مدهش، أستطيع أن أستمع إليك الليل بطوله لولا أن سانت مونيكا تنتظرني على أحر من الجمر، يجب أن أعود قبل منتصف الليل". وكنت أرد عليه ضاحكًا: "أنت جمهوري الوحيد والعريض والمُعجَب يا بوب".

وأنا أقرأ عليه قصيدة جديدة كتبتها عن تظاهرات الجمعة بلهجة ساكنة إيكوزيوم العاصمة، وبالضبط حول دور النساء الجزائريات في صناعة هذه الثورة البيضاء والحفاظ عليها، رفع نظره نحوي قائلاً: "قف، هذه للغناء!". وسحب قيثارته من

غطائها وشرع في تلحينها على الفور.

في مسيرة الجمعة الموالية، كنت سعيدًا وأنا أسمع آلاف المتظاهرين والمتظاهرات يرددون كلمات قصيدتي مغناة من قبل بوب مارلي. أمشي بين الأمواج البشرية أمسك بذراعي بوب مارلي ونغني حتى الانتشاء.

لقد أصبحت شاعر المسيرة، الجميع يحييني ويحتفل بي، ويرغب بعضهم في التقاط صور معي. كل أسبوع أصوغ قصيدة للجمعة القادمة. خلال أيام الأسبوع وتحضيرًا ليوم الجمعة كنا نلتقي مساء في شقتي التي هي عبارة عن أستوديو بغرفة نوم وصالون ومطبخ وحمّام، يقع في الطابق الأول فوق محل الورد مباشرة، نفتح قنينة نبيذ محلي مع بعض المقبلات، جبنة وزيتون وخيار وقطعة بيزة. يعمل بوب على تلحين القصيدة وقد ندخل عليها بعض التعديلات حتى تكون أكثر إيقاعًا وأسهل حفظًا. جمعة بعد أخرى أضحت جماهير المتظاهرين في ساحتي موريس أودان والبريد المركزي تتلقف هذه الأغاني، ويتقاسمها الآلاف على شبكات التواصل الاجتماعي. وكان أبناء الحي فرحين بي إذ شاهدوني على قناة فرانس 24 التليفزيونية في نشرة الأخبار، أتحدث عن علاقة الشعر بالثورات، وكيف أن الشعر بندقية أخرى، وذكرت مفدي زكريا ونيرودا وبول إيلوار وغارسيا لوركا

وكاتب ياسين والطاهر جاووت ويوسف سبتي، وكيف دفع بعض الشعراء حياتهم لأن قصائدهم وأفكارهم كانت تهز عروش الأنظمة الاستعمارية والديكتاتورية والثيوقراطية.

قلت لبوب: إن النظام يبحث عن إعادة إنتاج نفسه، فقد شعرت أن هجومًا إلكترونيًّا بدأ يحاصر أغانينا على شبكات التواصل الاجتماعي.

بهدوء الراهب قال لي: مهمة إسقاط نظام قائم على الفساد منذ أكثر من نصف قرن، مهمة صعبة ولكنها ليست بمستحيلة. إنه يلفظ أنفاسه، وسيضطر في الأيام القادمة إلى استعمال العنف والتوقيف والسجن، وسيشن حملة تخوين كبيرة ضد رموز الثورة.

لأول مرة أشعر بعمق حديث بوب مارلي، أنا الذي كنت أعتقد دائمًا أنه لا يأخذ الحياة على محمل الجد.

الثورة تزحف على أطراف قصر الرياسة بالحي المولوي.

ـــــــــ هذا

هذا الصباح بدا عمار النساخ الثاني حزينًا مكسور الخاطر وهو يلقي النظرة الأخيرة على إطار مولاه قزمان أبو نسوان، المعلق عند رأسه خلف المكتب، ويستعد لمغادرة ديوان القلم والإنشاء الذي قضى فيه عشرين حولاً.

شرع في جمع كتبه وقواميسه بحزن وتثاقل وتردد، بيدين مرتجفتين وضع قواميسه الضخمة التي كان يستخرج منها الكلمات الكبيرة المهجورة التي ماتت فأحياها وهي رميم، في كَرَاتِين أحضرها خصيصًا لهذا الأمر، كلها مرقمة بقلم خشن أحمر، وجمع أيضًا كراريسه التي كان يسجل عليها وقائع يومياته دقيقة بدقيقة، وأيضًا بعض ملاحظاته حول رسائل القدماء من كتاب دواوين الخلفاء والسلاطين، ولوحات في فن الكاليغرافيا العربي بعضها مكتمل والأخرى عبارة عن مشاريع في بدايتها.

جَمَعَ أيضًا أقلامه العديدة والمتنوعة في حقيبة من خشب خاصة، أقلامه هي ثروته التي يعتز بها، هي أسلحته، عتاده في وزارة دفاعه كما كان يقول دائمًا. لقد ظلت على مدى عشرين سنة معروضة بتنسيق فني خلف زجاج خزانة مكتبه، يعدها كل صباح بعينيه الواسعتين، يستعمل بعضها في مناسبات خاصة جدًّا. لقد تعود أن يكتب رسائل التهاني الدينية الإسلامية بالقلم الإيراني، ونصوص تهاني أعياد الميلاد بقلم باركير، هي حالة نفسية. يحدث أن يقف عدة دقائق متفرجًا عليها وكأنما هو في متحف صغير مخصص للأقلام من جميع الأشكال والأحجام، من العتيقة المصنوعة من القصب الإيراني التي أهداها إليه بعض خطاطي طشقند وأصفهان في واحدة من أسفاره إلى هذه البلدان الشرقية السحرية، ضمن الزيارات الرسمية التي رافق فيها صاحب الرياسة والكياسة، والتي لم يترك فيها مطار عاصمة بلد إلا وحطت عليه طائرته الرئاسية بحمد الله وفي رعايته، حتى إنه كثيرا ما جعل منها غرفة نوم قضى لياليه فيها، ليقلع في اليوم التالي باكرًا في اتجاه بلد آخر. غالبية مجموعة أقلام الماركات العالمية الكبيرة والمذهبة كواترمان وباركير وغيرها، قدمت إليه كهدايا من شخصيات وازنة دبلوماسية أو سياسية أو مالية من مختلف البلدان، خاصة الخليجية منها، والتي

مرّت بمكتبه قبل أن تحظى باستقبال من مولاي قزمان أبو نسوان المعظم.

بدا عمار النساخ الثاني منهارًا ورومانسيًّا وهو يستعد لإخلاء مكتبه، حتى إنه لم يتمكن من إخفاء دموعه عن سكرتيرة المستشار روبيسبيير التي جاءت لتساعده، قالت له: الرجال لا يبكون سيدي رئيس ديوان القلم والإنشاء!

وقبل أن يخطو خارج مكتبه لينزل عبر السلم المخصص لعمال الصيانة وعاملات التنظيف، متفاديًا كعادته المشي فوق السجاد الفارسي الذي يغطي الرواق الرئاسي، تساءل:

بعد قليل، أي بعد دقائق، سأكون خارج القصر، ومولاي قزمان أبو نسوان لن يكون قزمان أبو نسوان. لن أكون أنا هو أنا. لن يكون القادم الجديد للقصر بحاجة إلى خدماتي. لن يكون للغتي وقواميسي وأقلامي أي اعتبار، أي ذكر يذكر، سيغير الحاكم الجديد كل شيء ابتداء من السجاد الرئاسي إلى ورق المرحاض، مرورًا بالمذيعة مقدمة نشرة أخبار الثامنة مساء. سيكون للقادم لسانٌ يخاطب به الشعب بدلاً عن الرسائل التي كانت تُسيَّرُ بها البلاد.

أشعر الآن أنني كنت نصف حاكم هذا البلد!

بعيدًا عن قصر صاحب مولاي قزمان أبو نسوان سأصبح خارج مجال التغطية، سأفقد وزني واتزاني وسأفكر

في شيء أساسي واحد هو نهايتي. أليس الانتحار هو الحل الأمثل الذي سيعطي لنهاية حياتي معنى، وستتحدث عني الصحف ولو قليلاً، حتى ولو كان ذلك بتشفٍّ؟

غدًا، يا ترى ماذا سيكون عليه برنامجي اليومي بعيدًا عن ديوان القلم والإنشاء، بعيدًا عن رائحة القواميس وانتظار دقات هاتف مكتب مولاي قزمان أبو نسوان. لن أنهض صباحًا كما كل الصباحات التي قضيتها خلال عشرين حولاً. يا الله، الزمن الذي نكون فيه حكامًا يمر بسرعة، والزمن الذي نكون فيه الطبقة المحكومة يمر بتثاقل وبطء سلحفاتي، غدًا لن أحلق وجهي الذي لا شعر فيه أصلاً، لن أتمتع بمتعة مرور شفرة الحلاقة جيليت - تو مزدوجة الشفرة على حنكيّ المنتفخين المشحمتين قليلاً، فأنا الباشْ كاتبْ المحنك! لن أشرب قهوتي بالحليب لذيذةً ولن أراقب عقارب الساعة على معصمي قبل الخروج. غدًا سأقبع في ركن صالون بيتي جالسًا على السداري المغربي أنظر إلى جدار أبيض فارغ، باستثناء هذا الإطار المعلق المكتوب عليه أسماء الله الحسنى والتي عددها تسعة وتسعون. سأقرأ أسماء الله الحسنى مرارًا وتكرارًا من الأول إلى الأخير ومن الأسفل إلى الأعلى، وسأحاول أن أفهم معانيها. لن أنتظر منذ الغد أمرًا بكتابة رسالة أو خطبة. لقد انتهى عصر مولاي قزمان أبو نسوان

كما انتهى عصر مروان بن محمد والشابْ كاتبْ عبد الحميد الكاتب، وانتهى حكم أَبي حمو الثاني والشابْ كاتبْ يحيى بن خلدون وانتهى عهد المعتمد بن عباد والشابْ كاتبْ أبي بكر ابن عمار.

أأنا عمار النساخ الثاني أم يحيى بن خلدون أم عبد الحميد الكاتب أم ابن عمار؟

أشعر بريح تصفر في رأسي!!

جمعة ـــــــــ

جمعة أخرى.

هو المهدي أخريف، لا يحيى بن خلدون صاحب أبي حمو ولا عمار النساخ صاحب قزمان أبو نسوان ولا عبد الحميد الكاتب صاحب مروان بن محمد ولا ابن عمار صاحب المعتمد بن عباد، لا أحد من هؤلاء يسكنه، ومع ذلك هو الآخر يؤمن بتناسخ الأرواح؛ لأن روح بوب مارلي تسكنه.

أنا الموسيقى!

جُمُعَةٌ أخرى، بدا مساء هذه الجمعة باردًا نسبيًّا على الرغم من أن الصيف على الأبواب. أمطار غزيرة تهطل لتوديع الربيع ولاستقبال الصيف، تسقط بشعرية على مدينة إيكوزيوم الجميلة، فتغسل شوارعها وساحاتها وتمسح على

نفوس ساكنتها وضيوفها القادمين من المناطق الأخرى، كأنما السماء هي الأخرى تفرح مع جموع المتظاهرات والمتظاهرين، تشاركهم المسيرة وتنشد معهم الأناشيد وتردد معهم أغاني بوب مارلي. يعجبني منظر الأمواج البشرية وهي تتحول إلى مهرجان من المطريات الملونة فوق الرؤوس، النساء والرجال والأطفال كل واحد بمطرية، حركة المظلات فوق آلاف الرؤوس مثيرة في ساحة موريس أودان وساحة البريد والشوارع المحيطة. كعادته لا يحمل بوب مارلي مظلة وكأن شعره الطويل النازل ضفائر على كتفيه وظهره هو مظلته الطبيعية، مع ذلك بين الحين والآخر يحتمي بمظلتي أو على الأقل يحاول إخفاء قيثارته. كلما اشترى مطرية أضاعها في اليوم نفسه، إما ينساها في حافلة النقل العمومي أو في البار أو عند البقال أو في التاكسي، لذا كانت زوجته نصيرة تمنعه من الخروج ساعة المطر، وإذا ما خرج لا تسمح له بأخذ المظلة.

جنبًا إلى جنب، نمشي كعادتنا في كل يوم جمعة، ننزل شارع محمد الخامس في اتجاه ساحة أودان ثم ساحة البريد المركزي، الأمن على غير عادته، يحاصر الساحة، وصَفٌّ طويل من سيارات البوليس مركونة على الأرصفة ووسط الشوارع لعرقلة حركة المتظاهرين وكي تستفزهم لإفساد الحس السلمي للمسيرة. نمشي نحو غموض يحاصرنا، وكأن شيئًا ما

يحضر في الخفاء. أشعر بشيء حاد كالخنجر في بطني، مغص، ثم تردد، في الأفق أمر يتربص بي أو بالدّا المولود. أحس وأنا أتأمل هذا الوضع الغريب من حولنا كأنني من فصيلة تلك الكلاب التي يقال عنها إنها تملك قدرة عجيبة على استشعار حدوث الزلازل قبل موعد وقوعها ببضع دقائق.

في الأفق ظلام!

الشعارات المرفوعة من قبل المتظاهرين لا تزال هي نفسها، مطالبة بتغيير النظام كلية وبرحيل رموزه كاملة دون نقصان. رجال الشرطة يبدون على غير عادتهم في الجُمْعات السابقة، حيث كانوا يقبلون فيها وبكل بهجة على التقاط صور السيلفي مع المتظاهرين بهواتفهم النقالة. وكانت المتظاهرات لا تترددن في إهداء الورود وقطع الحلوى إلى رجال الشرطة، ولا يتردد الشرطي بقبول ذلك مبتسمًا. أليست هذه هي ثورة الابتسام، الثورة البيضاء؟ لقد اختفى هذا الجو الحميمي من الساحة، وما عادت عيون رجال الشرطة ترسل نور الابتسامة، مع أن المتظاهرين لا يزالون يرددون: "رجال الشرطة هم أيضًا أبناء الشعب".

لقد تم إغلاق النفق الجامعي الذي أصبح رمزًا للحراك في وجه حركة المتظاهرات والمتظاهرين، وما عاد بإمكانهم المرور عبره. التضييق أكثر فأكثر. مدرجات البريد المركزي

هي الأخرى تم عزلها بسياج من صفائح الحديد حتى لا يصل إليها بعض رموز المسيرة لإلقاء الكلمات والخطب على المتظاهرين. الجو مشحون وكئيب، ومع ذلك الجماهير مستمرة في مسيرتها والأناشيد والشعارات لا تتوقف.

بعد أن أصبحت الراية الأمازيغية مشتركة بين جميع المتظاهرين، ترفع في كل مكان من الجزائر دون حساسية، أصدرت قيادة الحرب أمرًا بمنع المتظاهرين من رفع هذه الراية التي تعبر عن الهوية الأمازيغية لشمال إفريقيا. ومع توقيف وسجن بعض الشبان والشابات حاملي هذا العلم الأمازيغي ازداد الجو توترًا، وبدأ التوجس من عودة النظام في شكل جديد. البلد يدخل شيئًا فشيئًا في نفق غريب. الثورة تريد أن تتحول إلى نهر يجرف في طريقه كل بقايا النظام، وهذا يخيف.

الكلب لا يعض إلا إذا كان خائفًا.

حين شرع بوب مارلي في الغناء وقد اجتمع من حوله الآلاف كالعادة يرددون خلفه كلمات الحرية والعدالة والديمقراطية، تسللت فرقة من القوات الخاصة في لباس مدني، وفي رمشة عين هجموا على الفرجة واختفى بوب مارلي من الوسط، سحبوه إلى سيارة شرطة مدنية مموهة كانت رابضة على الرصيف، وبمجرد أن أدخلوه إليها أقلعت

بسرعة جنونية وسط الحشود التي شرعت في التنديد. كل شيء أضحى رماديًّا في عيني.

المطر يزداد غزارة، سيول على أطراف الشوارع تجرف في طريقها بعض الأعلام وقناني المياه البلاستيكية الفارغة. مطفأً وحزينًا تدع إلى الشقة.

لم يعد بوب مارلي هذه الليلة إلى بيته، إنه رهن التوقيف.

حين علم عبد الرحمن الغسال بهذا الخبر الذي سرى في الحي سريعًا وعلى شبكات التواصل الاجتماعي، وهو الذي يملك نسخة من مفتاح بيت جاره، كلما غاب بوب عن الشقة يتكفل عبد الرحمن الغسال بمراقبتها ومرات يقضي الليل بها، قرر أن يذهب لتفقد البيت وإطعام القطة. حين دخل اتجه نحو الصالون أطفأ التليفزيون، فمن عادة بوب مارلي أن يتركه مفتوحًا كي تستأنس القطة سانت مونيكا بالصور والحركات على الشاشة ولا تشعر بالوحدة، وهي التي تعودت على حياة الحرية فوق السطوح. بمجرد أن استشعرت القطة بوجود شخص في البيت، شرعت في إرسال مواء غريب وجريح وهي في حالة هلع. انتقل عبد الرحمن الغسال إلى

المطبخ مباشرة بحثًا عنها. على المائدة بقايا قطعة خبز وعلبة جبن الكاماومبير وحبات زيتون في صحن صغير، وقنية نبيذ سانت مونيكا فارغة. كانت القطة واقفة فوق الطاولة تحاول القفز إلى السقف كي تعود إلى السطح من حيث نزلت ذات يوم، نظر إليها باستغراب، حاول تهدئتها لكنها ترفعت من موائها أكثر وهي تكرر القفز بجنون. وضع عبد الرحمن كرسيًّا أسفل فوهة تهوئة المطبخ وصعد فوقه، أخذ سانت مونيكا بين يديه وقد استسلمت له دون مقاومة، أدخلها في فوهة الممر، كانت سعيدة وهي تتسلق الممر الهوائي المؤدي نحو السطح. حين اختفت بكى عبد الرحمن الغسال.

نظر من فوهة التهوئة نحو السطح وإذا القطة وقد تحولت إلى امرأة تلبس طقما جميلا واقفة تنظر جهة الميناء!!

وقف عبد الرحمن الغسّال عند نافذة المطبخ، ولأول مرة يشعر ببرد الوحدة، توقيف بوب مارلي ورحيل سانت مونيكا.

لا

لا فرق بين دموع الفرح ودموع الأحزان، إن طعميهما مالحان ومتشابهان.

فقط دموع السلاطين طعمها حامض!

اليوم وأنا أسمع هذه الأصوات والزغاريد وأغاني بوب مارلي عن الحرية، يرددها الآلاف من المتظاهرين تلاحقني حتى سريري الذي مددته في ركن مكتبي بديوان القلم والإنشاء، المطل على الشارع الذي يمتلئ كل جمعة بالمتظاهرين والمتظاهرات، عدت إلى رسائل عبد الحميد الكاتب البديعة في أسلوبها، والتي صرفت أيامًا وليالي في حفظها، ولا زلت أحتفظ ببعضها في أدراج الخزانة التي تتصدر هذا المكتب. أخرجت رسالته التي وجهها إلى أهله وهو منهزم مع الخليفة مروان بن محمد، وهما هاربان من دمشق إلى مصر، وكيف تمت

ملاحقتهما من قبل العباسيين حتى صعيد مصر وتم اغتيالهما وهما على سريريهما. أقرأها وأتقلب فوق السرير، يهرب النوم عن عيني، عرق يسيل باردًا من كل جسدي، أغفو بعد نوم خاطف فأراني وصاحب الرياسة والكياسة مولاي قزمان أبو نسوان هاربين نحو بلد سلطان الغرب، والمتظاهرون بالملايين يلاحقوننا، على حناجرهم شعارات ضد مولاي وضد وزرائه وضدي أنا الباشْ كاتبْ محرر الرسائل والخطب. أدفع به أمامي وهو على كرسيه المتحرك، تدور العجلات فوق الطريق الترابي غير المعبد، ثم تتعثر في الحصى وعلى الحشائش الوحشية اليابسة والخضراء، فيصعب عليّ دفعها. أتلكأ، أنظر خلفي، وإذا بجيش من الفهود تتبعنا. أقول لمولاي الحاكم لا تخف فأنت رافع أعلى مئذنة في الدنيا منذ خمسة عشر قرنا من تاريخ المسلمين. بصعوبة يدير رأسه نحوي، ينظر إليّ بعينين باردتين وقد انمحت منهما الزرقة التي لطالما أغرت النساء الجميلات، لا يقوى على الكلام لكنه يحرضني بنظراته المطفأة كي أسرع أكثر، كي أدفع الكرسي المتحرك بقوة فالحدود لم تعد بعيدة، هي بضع عشرات الأمتار، ثم فجأة يدير رأسه ويسألني: لماذا يا عبد الحميد نحن هاربان إلى مصر؟

يدق الهاتف فأستيقظ وبي عطش جارف، حلقي ناشف، على الخط زوجتي الثانية التي تحمل نفس اسم الأولى، لكني

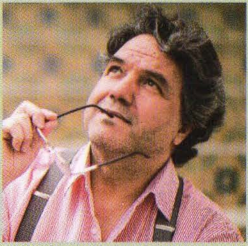
لم أكن متأكدًا من أنه صوت الثانية بل هو صوت الأولى التي ماتت جراء صعقة كهربائية سببها الغسالة الأوتوماتكية في ما أعتقد. لست متأكدًا من سبب موتها، لكني متأكد أنها ماتت وأننا دفناها في مقبرة أسرتها بالباب الشرقي لجنان طيطمة. لم أحضر جنازتها لأنني كنت في سفر مع مولاي قزمان أبو نسوان، كنا ببلد أسيوي لا أذكره، هو الشيشان أو أذربيجان؟ تسألني زوجتي الأولى التي ظهرت بعد أن شبعت موتًا إذا ما كنت بخير، فصاحب الرياسة والكياسة قد قدم استقالته وجموع المتظاهرين تملأ شوارع العاصمة والمدن الأخرى. لا أرد عليها، أقفل الهاتف، أغلق نافذة المكتب، أسحب الستارة حتى تعم ظلمة المكان فلا أميز شيئًا فيه، وأقرر أن أنتحر! لكني بعد لحظة وجدت الفكرة تافهة وسخيفة ومضحكة، وكأنها نهاية لرواية تافهة كتبت لفيلم عربي ساذج. أنا متأكد أن صاحب الرياسة مولاي قزمان أبو نسوان لن يموت، سينهض من على كرسيه المتحرك كما تنهض العنقاء من رمادها ولو في شكل إنسان آخر.

عاش الملك مات الملك!

لا بد من حاكم ولا بد من باشْ كاتِبْ!

إيكوزيوم في 02 أبريل 2019

الباش كاتِبْ



أمين الزاوي

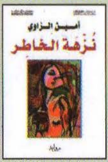
روائي جزائري يكتب بالعربية و الفرنسية ترجمت رواياته إلى أزيد من اثنتي عشرة لغة، من أعماله:

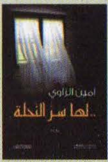
- الرعشة
- شارع إبليس
- حادي التيوس

صدر للمؤلف عن الدار

قلت وأنا أنظر إلى صورة مولاي قزمان أبو نسوان: يا رب، إذا ما قُدر وأن خنتك فلتكن خاتمتي مثل خاتمة أبي بكر بن عمار كاتب المعتمد، نهاية دموية قطّع فيها المعتمد بن عباد جسد كاتبه بالفأس إربًا إربًا لخيانته. لا يمكن أن يقوم بمثل هذا القتل الهمجي الوحشي في شاعر ونديم إلا عاشق متيم، ببرودة أعصاب، وبدمع خفي، طلب المعتمد بن عباد من مساعديه أن يضعوا جسد الباش كاتبْ المُقَطّع في كفن من حرير أصلي جُلب من أرخبيل اليابان، ويُغَسَّل ويغمّس في أجود العطور، ويدفن على الطريقة الإسلامية المالكية الحنفية ويوارى التراب بالقرب من غرفة نوم الخليفة حتى لا ينساه. وإذا كان يا رب هذا مصيري فلا أتمنى لولي نعمتي ومصدر جاهي ووجاهتي قزمان أبو نسوان أن يكون مصيره كمصير المعتمد بن عباد، الذي دارت رحى الأيام عليه فمن قصور أشبيلية حيث الحرير والدمقس والبساتين ودنان الخمر والنساء والغناء والموسيقى والشعر، من هذه الجنة إلى المنفى، ليتحول إلى عابر سبيل من طنجة إلى مكناسة ليستقر به قدره في سجن بقرية أغمات بالقرب من مراكش، على الجهة الأخرى من البحر.

















منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
editions.elikhtilef@gmail.com

ISBN: 978-614-02-1780-5
9 786140 217805

جميع إصداراتنا متوفرة في موقع نيل وفرات.كوم
www.neelwafurat.com - www.nwf.com